

المكتبة المالكية

أزهار الرِّياضِ

في أخبار عيسى عليه السلام

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التميمي

(ت: ١٠٤١هـ)

طبعة مزينة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٢٦٢٧٧
ص ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٢٦٢٧٧
ص ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

أزهار الرياض في أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيّدة ومنقّحة .

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناسر
الناسر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعد - القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

المقرى، احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تأليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التمسقى ، تحقيق: على عمر
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، 2010
5مجم ، سم
تكمك : 3-499-341-977-978
1- المحدثون المغاربة
2- القاضي عياض ، عياض بن موسى بن عياض
أ- عمر، على (محقق)
ب- العنوان

ديوى: 922.13

رقم الابداع: 16755



ومما لم يكمله من مؤلفاته . كتاب «الفنون الستة» ، فى أخبار سبته» .
وكتاب «غنية الكاتب ، وبغية الطالب» - فى الصدور والترسيل .

هكذا قال ابن الخطيب وقال ابن خاتمة فى «مزىة المرىة» وكتاب فىه
سؤالات وترسيل له - فى نحو أربعة أسفار . وانظر هذا الذى قال ابن خاتمة ،
هل هو «غنية الطالب» المذكور أو غيره؟ وكتاب تاريخ المرابطين - انتهى فىه
إلى سنة أربعين وخمسائة ، قال ذلك ابن خاتمة فى «المزىة» .

وقال ابن حمادة البرنسى : إنه ألف كتاب جامع التاريخ . فأربى على
جميع المؤلفات : فى أخبار الملوك بالأندلس . والمغرب منذ دخول الإسلام
إليهما . واستوعب فىه أخبار سبته ، وقضائها وفقهائها ، وجميع ما جرى من
الأمور فىها . واستوعب أخبار الدولة الحسنية .

قال جامع هذا التأليف : انظر هذا ، هل هو المذكور عند ابن خاتمة أو
غيره . وكتاب «الأجوبة المحبرة» ، على المسائل المتخيرة» .

قال ابنه : وجدت منها يسيرا فضممت إلى ما وجدته فى بطائقه . وعند
أصحابه من معان شاذة فى أنواع شتى . سئل عنها - رحمة الله عليه -
فأجاب : جمعت ذلك فى جزء . وكتاب أجوبة القرطبيين . قال ابنه : رأيت
هذه الترجمة بخطه . ولم أجد لها عنده مبيضة . غير أنى وجدتها بطائق
فجمعتها مع أجوبة غيرهم وأجوبته مما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام
فى سفرين . وكتاب «سر السراة فى آداب القضاة» .

قال ابن خاتمة فى «المزىة» للقاضى عياض - رحمه الله - تأليف مفيدة
كتبها الناس عنه وانتفعوا بها . وكثر استعمال كل طائفة لها - انتهى .

وقال الإمام الرحال أبو عبد الله بن جابر الوادى آشى - رحمه الله
حدثنى شيخنا الفقيه الكاتب البليغ المجاور بحرم رسول الله - ﷺ. المدفون
فى بقيعه أبو القاسم خلف ابن الشيخ المرحوم أبى الإصبيغ عبد العزيز بن
محمد الغافقى القبتورى. أنه تذاكر مع بعض أصحابه بيجاية أبا الفضل هذا
وتوالياه، فأنشد فيه ارتجالا بها. وذلك فى أواسط ربيع الأول المبارك من عام
خمسة وتسعين وستمائة. وسمعتها منها بتونس بمنزله عند جوازه مشرقا علينا
فى أوائل رجب من العام المذكور.

عياض إمام لا يضاهى جلاله	فما عوض من كتبه الدهر بالملقى
مشارقه إكماله شهدا له	بسبق أرى السباق فيه له خلفا
وحسبك ريا بالشفاء لذى صدى	لمودعه من وصف خير الورى أشقى
وأعجب تنبيهاته اللاء أوسعت	غوامض أعيت رائمى فهمها كشفا
وما مدرك شأو له فى مدارك	فإحسانه إحسان ما قبلها قفى
وكم ذا له من مثلهن مصنفا	تقرط أذن الدهر من ذهب شنفا
وليس يوفى الدهر حصر محاسن	بها فخر عصر كان منجبه وفى
وما غير إحفاء لسن يراعه	يفيد الذى فى البحث عن فضله أحفى

ولما شرعت فى هذا المجموع الموسوم بـ «أزهار الرياض»، فى أخبار
عياض» وذكرت يوما هذه التسمية لصاحبنا الفقيه النبيه الأديب، سيدى على
ابن أحمد الشامى - حفظه الله، واستنهضت فكره السليم لنظم يصلح إثباته
هنا فى وصف القاضى عياض وكتبه وغير ذلك. فكتب لى من الغد ما نصه:

يمينا ما الأزاهر فى رياض ولا الغزلان فى ورد الحياض
ولا الخيلان فى الوجنات تبدو لصب لامعات فى بياض
ولا الغدران فى الفلوات تندى لصاد نابعات فى افتياض
بأبداع من تألف متممة إلى قاضى أئمتنا عياض
وحذف الياء من تأليف. وقد تقدم مثله فى نظم الإمام أبى القاسم بن
رضوان.

وأنشدنى المذكور حفظه الله تعالى أيضا:

عياض سمت فخرا تأليفك التى حوت ما حوت من حسن ربح لمبتاع
من لم تكن منها لديه ذخيرة فلا نال من دنياه نفعا بامتاع
فائدة: فى تعليق البسيلى على التفسير مما التقطه من كلام شيخه ابن
عرفة - أن تقى الدين بن تيمية قال - لما رأى شفاء القاضى أبى الفضل
عياض - غلا هذا المغيربى! قال: وإلى الرد عليه أشار شيخنا ابن عرفة -
رحمه الله - تعالى بقوله:

شفاء عياض فى كمال نبينا كواصف ضوء الشمس ناظر قرصها
فلا غرو فى تبليغه كنه وصفه وفى عجزه عن وصفه كنه شخصها
وإن شئت شبهه بذكر أماره بأصل لبرهان مبين لنقصها
وهذا لقول قيل عن رائع: غلا عياض فتبت ذاته. عن محيصها

ونسب البسيلى المذكور لابن تيمية القول بالجهة، وكتب بعضهم على
طرة البسيلى ما نصه: رأيت أسئلته - أى ابن تيمية - فى أسفار فلا تسأل عن

اطلاعه وحسن تصرفه، والتجسيم نسبة له أبو حيان في آية الكرسي . وأبو حيان مدحه بقصيدة، ثم عاداه، فوجب التوقف في نقله لأجلها، ولم يزل حاله في ظهور حتى ناظر السبكيين، ومناظرته معهم حجة باهرة في فضله، وقد أثنى على عياض فلا يصح عنه ذمه، أو أراد أن القتل لا يقول به من الأربعة غير مالك، ولهذا رد حكم هذا الباب إليه في البلاد الشرقية - انتهى ما في الطرة.

قلت: أما علمه، فأمر لا ينكر ولا يجحد، وقد رأيت مؤلفا في التعريف به، ومحاشاته عما نسب إليه من التجسيم وغيره من المقالات الشنعية، وذكر فيه قصيدة أبي حيان التي مدحه بها وثناء الأكابر عليه. وغير ذلك من أموره. وكتب بالموافقة على ذلك، الحافظ ابن حجر والعيني والبساطي وغيرهم، وقال بعض هؤلاء: إن مسألة الزيارة التي رد عليه فيها السبكي. لا توجب في حقه بدعة، وغاية ما هنالك أنه أخطأ فيها، والتسليم في أمره أسلم، وهؤلاء نزهوه عن القول بالجهة، وهم أعرف بحاله من غيرهم - وإن صرح بخلاف ذلك غير واحد من المغاربة. منهم الحاج الرحال ابن بطوطة. فإنه قال في رحلته، شاهدته نزل درجة وقال: إن الله ينزل كما أنزل انتهى - عياذا بالله من هذه المقالة! وقد صرح بذلك أيضا بعض سلفنا، وهو الإمام القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد المقرئ التلمساني - رحمه الله - في أول رحلته المسماة بـ «نظم اللآلي، في سلوك الأمالي» - عندما تعرض لشيخه ابني الإمام التلمسانيين، وهأنا أثبت كلامه بطوله لم اشتمل عليه من ذكر أمر ابن تيمية وغير ذلك من الفوائد البديعة. وقد بدأ بهذين الشيخين في رحلته المذكورة بعد أن قدم ذكر نسب نفسه وأوليته - حسبما

ننقل ذلك بقريب - إن شاء الله سبحانه وتعالى ، لأننا ستعرض للتعريف به إذ قد عرفنا بغيره من الأعلام ، فتعين أن نذكره ، لأن الإنسان مجبول على خبر أسلافه ، ومن له به تعلق ، ونص كلامه :

فممن أخذت عنه واستفدت منه ، علماها - يعنى تلمسان - الشامخان ، وعالماها الراسخان ، أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام ، وكانا قد رحلا فى شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس ، فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار ، واليفرنى ، تلك الحلبة ، وأدركا المرجانى وطبقته من أعجاز المائة السابعة ، ثم وردا فى أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المؤمنين أبى يعقوب وهو محاصر لها . وفقه حضرته يومئذ ، أبو الحسن على بن يخلف التنسى ، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد ، وارتفع شأنه عند أبى يعقوب حتى إنه شهد جنازته ، ولم يشهد جنازة أحد ممن قبله ، وقام على قبره وقال : نعم الصاحب فقدنا اليوم^(١) .

حدثنى الحاج الشيخ بعباد تلمسان ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسى أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسى فى الخيل حوالى روضة الشيخ أبى مدين فقال لى ، كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلا عرضتم هنالك - وأشار إلى حيث المعراض الآن خشبة؟ ففعلنا . فلما قتل أبو يعقوب . وخرج المحصوران . أنكرا ذلك فأخبرتهما ، فأما أبو ريان - وكان السلطان يومئذ - فنزل وطأ رأسه ودخل^(٢) .

(١) نفح الطيب ٢١٥/٥ .

(٢) نفح الطيب ٢١٥/٥ .

وأما أبو حمو - وكان أميرا - فوثب وخلفها. ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين. اختصا ابني الإمام، وكان أبو حكو أشد اعتناء بهما. ثم بعده ابنة أبو تاشفين، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبي الحسن - إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من شهر رمضان الذي من عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر. فزادت مرتبة أبي موسى عنده إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين، وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة، فتوجه صحبة ابنه أمير المؤمنين أبي عنان إلى فاس. ثم رده إلى تلمسان - وقد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراس بن زيان، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام^(١).

قال لي خطيب الحضرة الفاسية، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عباد الرندي - لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القفول إلى تلمسان بت على تشييعهم، فرأيت كاني نظمت هذا البيت في المنام:

وعند وداع القوم ودعت سلوتي وقلت لها بيني فأنت المودع^(٢)

فانتبهت وهو في فيّ، فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لي مثله. ولما استحكم ملك أبي تاشفين واستوثق، رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلقيا علاء الدين القونوي وكان بحيث إنني لما رحلت، فلقيت أبا علي حسين بن حسين ببجاية، قال لي، إن قدرت أن لا يفوتك شيء من كلام علاء الدين القونوي حتى تكتب جميعه فافعل، فإنه لا نظير له.

(١) نفح الطيب ٢١٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢١٦/٥.

ولقيا أيضا جلال الدين القزويني صاحب البيان وسمعا صحيح البخاري على الحجار - وقد سمعته أنا عليهما، وناظرا تقى الدين بن تيمية وظهرا عليه، وكان ذلك من أسباب محنته.

وكانت له مقالات شنيعة من إمرار حديث النزول على ظاهره. وقوله فيه: كتزولي هذا. وقوله فيمن سافر إلى المدينة لا ينوي إلا زيارة القبر الكريم، لا يقصر حتى ينوي المسجد لحديث لا تشد الرحال، وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين.

حدثني شيخى العلامة أبو عبد الله الأبلق. أن عبد الله بن إبراهيم الزمورى أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه.

مَحْصَلٌ فِي أَصُولِ الدِّينِ حَاصِلُهُ مِنْ بَعْدِ تَحْصِيلِهِ عِلْمُ بِلَا دِينٍ
أَصْلُ الضَّلَالَةِ وَالْإِفْكَ الْمِينُ فَمَا فِيهِ فَأَكْثَرُهُ وَحَى الشَّيَاطِينُ^(١)
قال: وكان فى يده قضيب فقال: والله لو رأيت لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضعه^(٢).

وبحسبك ما ظهر لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق، أنى لما حلت بيت المقدس وعرف به مكانى من الطلب. وذلك أنى قصدت قاضيه شمس الدين بن سالم ليضع لى يده على رسم استوجب به هنالك حقا. فلما أَطَلَّتْ عليه عرفه بى بعض من معه، فقام إلى حتى جلست، ثم سألنى بعض الطلبة بحضرته، فقال لى: إنكم - معشر المالكية - تبيحون للشامى يمر بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجحفة، وقد قال رسول الله - ﷺ - بعد

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢١٦.

(٢) نفح الطيب ٥/٢١٦.

أن عين المواقيت لأهل الآفاق: هن لهن ولن مرّ عليهن من غير أهلهن، وهذا قد مرّ على أهل ذى الحليفة، وليس من أهله فيكون له، فقلت له: إن النبي ﷺ قال: من غير أهلهن، أى من غير أهل المواقيت، وهذا سلب كلى، وأنه غير صادق على هذا الفرد ضرورة صدق نقيضه - وهو ألا يجاب الجزئى عليه، لأنه من بعض أهل المواقيت قطعاً، فلما لم يتناوله النص، رجعنا إلى القياس، ولا شك أنه لا يلزم أحداً أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة. فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة. فإنها بين أيديهم وهم يمرون عليها، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلما عرفت أتاني آت من أهل المغرب فقال لى: تعلم أن مكانك فى نفوس أهل [هذا] البلد مكين^(١)، وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم انقباضك عن ابنى الإمام. فإن سئلت فانتسب إليهما، فقد سمعت منهما وأخذت عنهما، ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما، فتضع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووراث علمهما وأن لا أحد فوقهما^(٢).

وليس لما تبنى يد الله هادم

وشهدت مجلساً بين يدى السلطان أبى تاشفين، عبد الرحمن بن أبى حمو، ذكر فيه أبو زيد بن الإمام - أن ابن القاسم مقلد مقيد النظر بأصول مالك، ونارعه أبو موسى عمران بن موسى المشدالى، وادعى أنه مطلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة، قال: فلو تقيّد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين التلمسانى مثل فيه الاجتهاد المخصوص، باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزنى إلى الشافعى، فقال عمران، هذا (١) هذا المثبت من نفح الطيب، ومكنُ فلان عند الناس عظم عندهم، فهو مكين. والذى فى المطبوع: «ممكن».

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٧٥١ - ٥١٨، وما بين حاصرتين منه.

مثال، والمثال لا تلزم صحته، فصاح به أبو موسى بن الإمام وقال لأبي عبد الله بن أبي عمرو: تكلم. فقال لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل، فقال أبو موسى للسلطان، هذا كلام أصولي محقق، فقلت لهما - وأنا يومئذ حديث السن، ما أنصفتما الرجل، فإن المثل كما تؤخذ على جهة التحقيق، كذلك تؤخذ على طريق التقريب، ومن ثم جاء ما قاله الشيخ - أعني ابن أبي عمرو، وكيف لا وهذا سيويه يقول: وهذا مثال ولا يتكلم به. فإذا صح أن المثال قد يكون تقريبا، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد الممثل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد^(١).

وشهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان. قرئ فيه على أبي زيد بن الإمام حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله في صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوى، هذا الملقن محتضر حقيقة، ميت مجازا، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم - والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه^(٢).

وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح فقلت: زعم القرافي أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال، مجازا في الاستقبال، مختلفا فيه في الماضي إذا كان محكوما به. أما إذا كان متعلق الحكم كما هنا، فهو حقيقة مطلقا إجماعا، وعلى هذا التقرير لا مجاز فلا سؤال^(٣).

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) نفح الطيب ٥/٢١٩.

(٣) نفح الطيب ٥/٢١٩.

لا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر، لأننا نقول: إنه نقل الإجماع - وهو أحد الأربعة التي لا يطالب مدعيها بالدليل كما ذكر أيضا، بل نقول إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها، بل هذا أشنع لكونه مما علم كونه من الدين بالضرورة، ثم إنا لو سلمنا نفى الإجماع، فلنا أن نقول، إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة لأن تلقيه قبل ذلك - إن لم يدهش، فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين - أي، لقنوا من تحكمون بأنه ميت، أو نقول: إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه، هل أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلاس، ولا شك أن هذه حالة خفية، يحتاج في نصبها دليلا على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها - وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضا مما لا يعرف بنفسه بل بالعلامات، فلما وجب اعتبارها. وجب كون تلك التسمية إشارة إليها - والله تعالى أعلم^(١).

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبي زيد: وإذا سلم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف - إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم من خلفه، لثلا يمر بين يدي أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعا بين الأدلة. قلت: وهذا من ملح الفقه^(٢).

اعترض عند أبي زيد قول ابن الحاجب «ولبن الآدمي والمباح طاهر» - بأنه إنما يقال في الآدمي لبان، فأجاب بالمنع، واحتج بقول النبي - ﷺ «اللبن

(١) نفح الطيب ٢١٩/٥.

(٢) نفح الطيب ٢١٩/٥.

للفحل». وأجيب بأن قوله ذلك لتشريكه^(١) المباح معه فى الحكم، لأن اللبان خاص به، وليس موضع تغليب، لأن اللبان ليس بعاقل، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل^(٢).

تكلم أبو زيد يوما فى مجلس تدرسه فى الجلوس على الحرير، فاحتج إبراهيم السلوى للمنع بقول أنس: فقمى إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس، فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراش فحسب، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها، وذكر حديثا فيه تغطية الحصير. فقلت: كلا الأمرين يسمى لباسا، قال الله عز وجل: ﴿... هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ...﴾ [البقرة] وفيه بحث^(٣)، كان أبو زيد يصحف قول الخونجى فى الجمل، والمقارنات التى يمكن اجتماعه معها. فيقول: والمفارقات. ولعله فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما قرأ عليه:

وغررتنى وزعمت أنك لا بنٌ بالصيف تامرٌ

فقال:

وغررتنى وزعمت أنك لا تنى بالضيف تامر^(٤)

فقال: أنت فى تصحيفك أشعر من الخطيئة^(٥)، أو كما حكى عن الشافعى أنه لما صلى بالخليفة فى رمضان، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن. فكان ينظر فى المصحف، فصحف آيات، صنعة الله - أصيب به من أساء - إنما

(١) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «لتشريكه».

(٢) نفح الطيب ٥ / ٢٢٠.

(٣) نفح الطيب ٥ / ٢٢٠.

(٤) نفح الطيب ٥ / ٢٢٠.

(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «الخطئة».

المشركون نحس - وعدّها أباه - تقيّة الله خير لكم - هذا أن دعوا للرحمن ولدا - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه^(١).

سمعت أبا زيد يقول: إن أبا العباس الغماري التونسي، أول من أدخل «معالم» الإمام فخر الدين للمغرب، ويسبب ما قفل به من الفوائد، رحل أبو القاسم ابن زيتون^(٢).

وسمعتّه يقول: إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهي من ستين ديوانا، وحفظت من وجادة أنه ذكر عند أبي عبد الله بن قطرال المراكشي. أن ابن الحاجب اختصر الجواهر. فقال: ذكر هذا لأبي عمرو حين فرغ منه، فقال: بل ابن شاس اختصر كتابي. قال ابن قطرال: وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس، والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا في الشيء اليسير، فهما أصلاه ومعتمداه، ولا شك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه وبعد مداه^(٣).

وكان أبو زيد من العلماء الذين يخشون الله. حدثني أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن، ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد، فقال له أبو زيد، لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلّي فيه ركعتين كما فعل علي بن أبي طالب^(٤).

وسأله أبو الفضل بن أبي مدين الكاتب ذات يوم عن حاله - وهو قاعد ينتظر خروج السلطان. فقال له: أما الآن فأنا مشرك، فقال: أعينك من

(١) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٢١/٥.

(٤) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢١.

ذلك ، فقال : لم أرد الشرك فى التوحيد ، لكن فى التعظيم والمراقبة ، وإلا فأى شىء جلوسى ها هنا^(١) .

والشىء يذكر بالشىء ، قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه ، فقام إلى جانبى شيخ من الطلبة ، وأنشدنى لأبى بكر بن خطاب :

أبصرت أبواب الملوك تغص بالر	اجين إدراك العُلا والجاه
مترقبين لها فمهما فتحت	خروا لأذقان لهم وجباه
فأنفت من ذاك الزحام وأشفت	نفسى على إنضاء جسمى الواهى
ورأيت باب الله ليس عليه مر	متزاحم فقصدت باب الله
وجعلت من دونهم لى عدة	فأنفت من غى وطول سفاهى ^(٢)

قال جامع هذا ، أحمد بن محمد المقرئ - وفقه الله - رأيت على قوله ورأيت باب الله - البيت بخط الإمام عالم الدنيا ، أبى عبد الله بن مرزوق شارح خليل وصاحب التآليف البديعة ، بطرة رحلة القاضى أبى عبد الله المقرئ ، مشيرا إلى البيت المذكور ما نصه .

قلت ذلك لسعته أو لقلة أهله

إن الكرام كثير فى البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا
قل : ﴿... لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ...﴾ [المائدة] - انتهى^(٣) .

(١) نفح الطيب ٢٢١/٥ .

(٢) نفح الطيب ٢٢١/٥ .

(٣) نفح الطيب ٢٢٢/٥ .

رجع: وحدثني شيخ من أهل تلمسان، أنه كان عند أبي زيد مرة فذكر القيامة وأهوالها، فبكى، فقلت، لا بأس عليك وأنتم أمامنا، فصاح صيحة واسود وجهه، وكاد يتفجر دما، فلما سرى عنه، رفع يديه وطرفه إلى السماء وقال: اللهم لا تفضحنا مع هذا الرجل، وأخباره كثيرة^(١).

وأما شقيقه أبو موسى، فسمعت عليه كتاب مسلم، واستفدت منه كثيرا، فمما سألته عنه قول ابن الحاجب في الاستلحاق، وإذا استلحق مجهول النسب إلى قوله أو الشرع بشهرة^(٢) نسبه - كيف يصح هذا القسم مع فرضه مجهول النسب؟ فقال: يمكن أن يكون مجهول النسب في حال الاستلحاق، ثم يشتهر بعد ذلك فيبطل الاستلحاق، فكأنه يقول: الحق^(٣) ابتداء ودواما ما لم يكذبه أحد. هذه في أحد الحالين، إلا أن هذا إنما يتصور في الدوام فقط^(٤).

ومما سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع، وكثيرا ما ينكشف الأمر بخلافه، ولو كتبوا مثلا ظاهر الصحة والجواز والطوع، لبرئوا من ذلك، فقال لي، لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم - لم يجمال ذكر الظن ولا ما في معناه احتمال، فإذا أمكن العلم بمضمونها، لم يجز أن يحمل على غيره، فإذا تعذر كما ها هنا، بنى باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادة، وأجرى ظاهره على ما لا ينافي أصلها، صيانة لرونقها ورعاية لما كان ينبغي أن تكون عليه لولا الضرورة. قلت ولذلك عقد

(١) نفح الطيب ٢٢٢/٥.

(٢) في الأصل: «شهرة» والمثبت من نفح الطيب.

(٣) في الأصل: «الحقه» والمثبت رواية المصنف في النفح.

(٤) نفح الطيب ٢٢٢/٥.

ابن فتوح وغيره عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير، مع أن ذلك إنما يدرك بما غايته الظن في الحرز والتخمين، وكانا معا يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد - انتهى^(١) كلام القاضي المقرئ في حق ابني الإمام

وإذا قد بلغنا إلى هذا الموضع، فلنذكر التعريف بهذا الإمام الذي هو من أشهر أسلافنا فنقول:

قال - رحمه الله - أول كتابه المسمى بـ «نظم اللآلي في سلوك الأمالي» يقول محمد المقرئ - سمح الله تعالى له ولطف به - كان مولدى بتلمسان أيام أبى حمو^(٢) موسى بن عثمان بن يغمراس بن ريان، وقد وقفت على تاريخ ذلك، ولكنى رأيت الصفح عنه، لأن أبا الحسن ابن مؤمن سأل أبا الطاهر السلفى عن سنه فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا الفتح بن ريان عن سنه فقال لى: أقبل على شأنك، فإنى سألت على بن محمد اللبان عن سنه فقال لى: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا القاسم، حمزة بن يوسف السهمى عن سنه فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا بكر محمد ابن عدى المنقرئ عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا اسماعيل الترمذى عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت بعض أصحاب الشافعى عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت الشافعى عن سنه فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت مالك بن أنس عن سنه فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه^(٣).

(١) نفح الطيب ٢٢٣/٥.

(٢) فى الأصل: «حم» والمثبت لدى المصنف فى نفح الطيب ٢٠٦/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٠٦/٥.

وكان الذى اتخذها من سلفنا قرارا، بعد أن كانت لمن قبله مزارا، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرئ، صاحب الشيخ أبى مدين، الذى دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين، وهو أبى الخامس، فأنا محمد بن محمد ابن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروى^(١) الصلاة، حتى إنه ربما امتحن بشيء فلم يؤنس منه التفات، ولا اسشتعر منه شعور، ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبى مدين^(٢).

ثم قال القاضى أبو عبد الله المقرئ بعد كلام فى ذكر طبقات أسلافنا ما نصه: ولما درج هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم، ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالى الفتن، ولم يسلموا من جور السلاطين، فلم يزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمان فهأنذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة، اتخذنا فضوله عيشا، وأصوله حرمة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، ففرغت - بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضا وإلقاء، سواء المقيم القاطن، والوراد الظاعن^(٣).

فمن أخذت عند واستفدت منه علماها الشامخان، وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمن، أبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام، ثم ذكر جميع ما قدمناه قريبا ثم قال: ومن أخذت عنه أيضا، حافظها ومدرسها ومفتيها، أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالى. صهر شيخ المدرسين^(٤) أبى على ناصر الدين على ابنته، وكان قد فر من حصار

(١) نسبة إلى عروة، لعله عروة بن الزبير، فقد كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء حتى كان يقول: إني لأسأل الله فى صلاتي كل شيء حتى الملح.

(٢) نفح الطيب ٢٠٣/٥.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٠٦.

(٤) فى الأصل: «التأخرين» والمثبت رواية المصنف فى نفح الطيب ٢٢٣/٥.

بجاية فنزل الجزائر، فبعث فيه أبو تاشفين، وأنزله من التقريب والإحسان بالمحل المكين، فدرس بتلمسان الحديث والفقه والأصول والنحو والمنطق والجدل^(١) والفرائض. وكان كثير الاتساع في الفقه والجدل، مديد الباع فيما سواه مما ذكر^(٢).

سألته عن قول ابن الحاجب في السهو: «فإن أخال الإعراض، فبطل عمدته» فقال: معناه: فإن أخال غيره أنه معرض، فحذف المفعول الأول لجواره، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من أن وأن. قال الله العظيم: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا...﴾ [العنكبوت]^(٣).

قلت: وأقوى من هذا، أن يكون المصدر هو المفعول الثاني، وحذف الثالث اختصاراً لدلالة المعنى عليه. أي فإن أخال الإعراض كائناً، كما قالوا، خلعت ذلك وقد أعربت الآية بالوجهين، وهذا - عندي أقرب^(٤).

ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم: أعلم باستقلاله فلان، أي أعلم فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقل، فحذفوا الأول، وصاغوا ما بعده المصدر^(٥).

سئل عمران - وأنا عنده - عما صبغ من الثياب بالدم، فكانت حمرة منه، فقال: يغسل فإن لم يخرج شيء من ذلك في الماء. فهو طاهر، لأن

(١) هذا الصواب في نفح الطيب، والذي في المطبوع: «الجدول».

(٢) نفح الطيب ٥/٢٢٣.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٤) نفح الطيب ٥/٢٢٤.

(٥) نفح الطيب ٥/٢٢٤.

المتعلق به على هذا التقدير ليس إلا لون النجاسة، وإذا عسر قلعه بالماء فهو عفو. وإلا لوجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء^(١).

قلت: في البخاري: قال معمر: رأيت الزهري يصلي فيما صبغ بالبول من ثياب اليمن - يعني - والله تعالى أعلم - بالإرشالة، وتفسيره على ما ذكره عمران، وكان قد صاهر قاضي الجماعة أبا عبد الله بن هدية على ابنته، فلم تزل عنده إلى أن توفي عنها^(٢).

ومنهم مشكاة الأنوار، الذي يكاد زيتُه يضيء ولو لم تمسه نار، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن حكم الكنانى السلوى - رحمه الله، ورد تلمسان بعد العشرين، ثم لم يزل بها إلى أن قتل يوم دُخِلَتْ على بنى عبد الواد، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان، من عام سبعة وثلاثين [وسبعمائة]^(٣).

قال لى الشيخ ابن مرزوق: ابتداء أمر بنى عبد الواد بقتلهم لأبى الحسن السعيد، وكان أسمر لأم ولد تسمى العنبر، وختم بقتل أبى الحسن بن عنمان إياهم - وهو بصفته المذكورة حذوك النعل بالنعل، فسبحان من دقت حكمته فى كل شيء^(٤).

ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى، ومحمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندى. فى رحلتهم على قبر السعيد بعباد تلمسان، تناول ابن الحكيم فحمة، ثم نقش بها على جدار هنالك.

(١) نفح الطيب ٥/٢٢٤.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٤.

(٣) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٢٤ وما بين حاصرتين منه.

(٤) نفح الطيب ٥/٢٢٤.

انظر فَنَفِيَّ إِلَيْكَ الْيَوْمَ مَعْتَبِرٌ إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ بَعَيْنَ الْقَلْبِ قَدْ لَحَظَا
بِالْأَمْسِ أَدْعَى سَعِيدًا - وَالْوَرَى خَوْلَى وَالْيَوْمَ يَدْعَى سَعِيدًا مِنْ بِي اتْعَظَا^(١)
قال ابن حكم: كان أول اتصالى بالأستاذ أبى عبد الله بن آجروم. أنى
دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب المفصل. فوجدت الطلبة يعربون بين
يديه هذا البيت.

عهدى به الحى الجميع وفيهم قبل التفريق ميسر وندام
وقد عمى عليهم خبر «عهدى» فقلت له: قد سدت الحال - وهى
الجملة بعده - مسده، فقال لى بعض الطلبة: وهل يكون هذا فى الجملة كما
كان فى قولك: «ضربى زيدا قائما»؟ فقلت له: نعم، قال رسول الله - ﷺ:
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد^(٢).

ذكر أبو زيد ابن الإمام يوما فى مجلسه، أنه سئل بالمشرق عن هاتين
الشرطيتين ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٢)
[الأنفال] فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج، ولو علم الله فيهم خيرا، لتولوا،
وهو محال. ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين فقال ابن حكم، قال الخولجى،
والإهمال بإطلاق لفظ لو وإن فى المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا
مهملتان، والمهلة فى قوة الجزئية، ولا قياس على جزئيتين: فلما اجتمعت
ببجاية بأبى على حسن بن حسين، وأخبرته بهذا وبما أجاب به الزمخشري
وغیره مما يرجع إلى انتقاء تكرار الوسط، فقال لى: الجوابان^(٣) فى المعنى

(١) نفح الطيب ٥/٢٢٤.

(٢) نفح الطيب ٥/٢٢٥.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «الجوابان» وصوابه من نفح الطيب.

سواء . لأن القياس على الجزئيتين ، إنما امتنع لانتقاء أمر تكرر الوسط ، فأخبرت بذلك شيخنا الأبلّى ، فقال : إنما يقوم القياس على الوسط ، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالتين - إلى سائر ما يشترط ، فقلت ، ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما يبنى عليه من الوسط وغيره ، وإلا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين ، قال الأبلّى : وقد أجبت بجواب السلوى ، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية ، لأن الشرطية لا تنتج جزئية ، فقلت : هذا فيما يساق منها للحجة مثل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴾ (٢٢) [الأنبياء] . أما فى مثل هذا فلا (١) .

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون - نزيل طيبة - على تربتها السلام - سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين :

رأت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصلها (٢) بالرقمتين
كلانا ناظر قمرنا ولكن رأيت بعينها ورأت بعينى
ففكر ثم قال : لعل هذا الرجل كان ينظر إليها وهى تنظر إلى قمر السماء ، فهى تنظر إلى القمر حقيقة ، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة ، فقد رأى بعينها ، لأنها ناظرة الحقيقة ، وأيضا فهو ينظر إلى قمر مجارا وهو لإفراط استحسانه لها ، يرى أن قمر السماء هو المجار ، فقد رأته بعينه لأنها ناظرة المجار (٣) .

(١) نفح الطيب ٢٢٥/٥ .

(٢) فى المطبوع : «وصلنا» والمثبت رواية نفح الطيب .

(٣) نفح الطيب ٢٢٦/٥ .

قلت: ومن هنا تعلم وجه الفاء في قوله: «فأذكرتني» لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته، وصار القمر حقيقة إياها، كان قوله «رأت قمر السماء فأذكرتني» بمثابة قولك، أذكرتني فتأمله، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ حق الفهم ينشده وأذكرتني، فالفاء في البيت الأول مبنية على معنى البيت الثاني، لأنها مبنية عليه، وهذا النحو يسمى: الإيذان في علم البيان^(١).

ولما اجتمعنا بأبي الوليد بن هاني - مقدمه علينا من غرناطة - سأل ابن حكم عن تكرار من في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ...﴾ [الرعد]، دون ما بعده، فقال: لولا تكررها أولا، لتوهم التضاد بتوهم اتحاد الزمان، فارتفع بتكرر الموضوع، أما آخر، فقد تكرر الزمان، فارتفع توهم التضاد، فلم يحتج إلى رائد على ذلك^(٢).

فقلت: فهلا اكتفى بسواء عن تكرار الموضوع، لأن التسوية لا تقع إلا بين أمرين وإنما الجواب عندي أنها تكررت أولا على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه، ثم اختصرت ثانيا لفهم المراد من التفصيل بالأول مع أمن اللبس. وقد أجاب الزمخشري بغير هذين فانظره^(٣).

سألني ابن حكم المذكور عن نسب المجيب في هذا البيت:

ومهفهف ألا عطا فقلت له انتسب فأجاب ما قتل المحب حرام

(١) نفح الطيب ٢٢٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٢٧/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٢٧/٥.

ففكرت ثم قلت: أراه تميميا لإلغائه «ما» النافية، فاستحسانه منى لصغر سنى يومئذ^(١).

تذاكرت^(٢) يوما مع ابن حكم فى تكملة محمد بن محمد بن مالك لشرح التسهيل لأبيه، ففضلت عليه كلام أبيه. ونازعنى الأستاذ فقلت:

عهد من الآبا توارثها ألا بنا

فما رأيت بأسرع من أن قال:

بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى

فبهت من العجب^(٣) وتوفى الشيخ ابن مالك سنة اثنتين وسبعين [وستمائة] وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمى، فقليل مات فيها إمام نحو، وولد إمام نحو^(٤).

سألت ابن حكم عن قول فخر الدين فى أول المحصل: «وعندى أن شيئا منها غير مكتسب - بمعنى لا شيء ولا واحد، هل له أصل فى العربية أو هو كما قيل من بقايا عجمته؟ فقال لى: بل له أصل، وقد حكى ابن مالك مثله عن العرب فلم يتفق أن استوقفه عليه، ثم لم أزل أستكشف كل من أظن أن لديه شيئا عنه فلم أجد من عنده أثارة منه حتى مر بى فى باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر الداخلة عليها، «كان» - من «شرح التسهيل» قوله: «فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين» نحو: «علمت زيدا

(١) نفح الطيب ٢٢٧/٥.

(٢) فى المطبوع: «نظرت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «التعجب» والمثبت من نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٢٢٧ وما بين حاصرتين منه.

أبو من هو» اختير نصبه، لأن الفعل مسلط عليه فلا مانع، ويجوز رفعه لأنه والذي بعد الاستفهام شيء واحد في المعنى، فكأنه في حيز الاستفهام، والاستفهام مشتمل عليه، وهو نظير قولهم «إن أحد إلا»^(١) يقول ذلك» وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفي، ولكن لما كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئاً واحداً في المعنى، تنزل منزلة واقع بعد نفي، فعلمت أنه نحا إلى هذا، لأن شيئاً ها هنا والضمير المرفوع بمكتسب النفي في المعنى شيء واحد، فكان شيئاً كأنه وقع بعد غير، أى بعد النفي^(٢).

سأل ابن فرحون ابن حكم: هل تجدد في التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها في هذا البيت:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعت فسام صبرا فأعيا نيله فقضى
ففكر ثم قال: نعم ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ...﴾ [القلم] إلى آخرها، فمنعت له البناء في «فتنادوا» فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم، فقال لهم رسول الله - إلى آخر السورة [الآيات ١٣ - ١٥ من سورة الشمس]، فمنع له بناء الأخيرة لقراءة الواو، فقلت: امنع ولا تسند فيقال لك إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهى في كلامهم إلى هذا العدد سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام، ﴿... فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ...﴾ [يونس]، وكقول امرئ القيس:

غشيت ديار الحى بالبكرات

(١) فى الأصل: «لا» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٢٢٨/٥.

البيتين (١) .

لا يقال: فالحب سابع لأننا نقول: إنه عطف على عاقل المجرد منها،
ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل في حكمة خلق السموات
والأرض فيها. وشأن اللسان عجيب (٢).

وقوله في هذا البيت: فحب لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيرا حتى
استغنى به عن محب، فلا تكاد تجده إلا في قول عترة:

ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة المحب المكرم
ونظيره محسوس من حس (٣)، والأكثر أحس ولا تكاد تجد محسا،
وهذا التوجيه أحسن (٤) من قول القرافي في شرح التنقيح إنهم أجروا
محسوسات مجرى معلومات لأن الحس أحد طرق (٥) العلم (٦).

سمعت ابن حكم يقول: كتب بعض أدباء فاس إلى صاحب له:

ابعث إلى بشيء مدار فاس عليه
وليس عندك شيء مما أشير إليه

(١) نفح الطيب ٢٢٨/٥ والبيتان هما قوله:

غشيت ديار الحى بالبكرات فعارمة فيرقه العبرات
الغول فحليت فأكناف منعج إلى عاقل فالجب ذى الأمرات

(٢) نفح الطيب ٢٢٩/٥.

(٣) تحرف في المطبوع إلى: «حسن» وصوابه من نفح الطيب.

(٤) في المطبوع: «أحسن» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٥) في المطبوع: «الطرق» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٦) نفح الطيب ٢٢٩/٥.

فبعث إليه ببطة من مري^(١) - يشير بذلك إلى الرياء^(٢).

وحدث أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم، حضر وليمة، وكان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارا من اللون المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء، وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع في الناس، فناوله القاضي غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطته^(٣).

ومنهم عالم الصلحاء، وصالح العلماء، وجليس التتزيل، وحليف البكاء والعويل، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي، خطيب جامع القصر الجديد، وجامع خطتي التحديث والتجويد^(٤)، ويسميه أهل مكة البكاء، ولما قدم أبو الحسن على ابن موسى البحيري، سأل عنه ف قيل له: لو علم بك أذاك، فقال: أنا آتى من سمعت

(١) البطة: إناء كالقارورة يعمل على شكل بطّة، والمرى - بتشديد الراء - أنواع من مستحضرات تتخذ في صنع الأطعمة منها المرى النقيع والطيب ومرى الخبز ومرى الحوت. وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب بالأفاويه دون خبز محرق، والعامّة تصنعه من العسل المحرق والخبز المحرق وغيرهما. ويقول دوزي: إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء أخرى. ويقول ابن البيطار: إن نوعاً منه يعمل من السمك المالح واللحوم المسالحة، وينقل عن الجاحظ قوله: «المرى هو جوهر الطعام وروح البارد المستظرف والحرار المستنظف...»

(انظر قاموس دوزي «مادة مري» ومفردات ابن البيطار ١٤٩/٤ وكتاب الطبخ ٨٢ ومواضع أخرى منه).

(٢) نفح الطيب ٢٢٩/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٣٠/٥، وتحرف في المطبوع: «... بن أحمد بن الملجوم» إلى: «... الملجوم».

(٤) في الأصل: «التجديد» والمثبت رواية نفح الطيب.

سیدی ابا زید الهزمیری يقول له - لأول ما رآه ولم يكن يعرفه قبل ذلك -
مرحباً بالفتى الخاشع، أسمعنا من قراءتك الحسنة^(١).

دخلت عليه بالفقيه أبى عبد الله السطى فى أيام عيد، فقدم لنا طعاماً،
فقلت له: لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما يرفع من حديث: من أكل مع
مغفور غفر له، فتبسم وقال لى: دخلت على سیدی أبى عبد الله الفاسى
بالإسكندرية، فقدم طعاماً، فسألناه عن هذا الحديث، فقال لى: دخلت على
شرف الدين الدمياطى، فقدم لى طعاماً فسألته عن هذا الحديث، فقال: وقع
فى نفسى منه شيء، فرأيت النبى - ﷺ فى المنام، فسألته عنه، فقال لى: لم
أقله، وأرجو أن يكون كذلك^(٢).

وصافحته بمصافحة الشيخ أبا عبد الله ريان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن
عطية الصعیدی، بمصافحته أبا العباس أحمد المثلث، بمصافحته المعمر،
بمصافحته رسول الله - ﷺ^(٣).

وسمعتة يحدث عن شيخه أبى محمد الدلاصى، أنه كان للملك العادل
مملوك اسمه محمد، فكان يخصه لدينه وعقله بالنداء باسمه، وإنما كان ينطق
بماليكه: يا ساقى، يا طبّاخ، يا مزین، فنادى به ذات يوم: يا فراش، فظن
ذلك لوجدة عليه، فلما لم ير أثر ذلك، وتصورت له به خلوة سألته عن
مخالفته لعادته معه، فقال: لا عليك كنت حيثئذ جنباً، فكرهت ذكر رسول
الله - ﷺ - على تلك الحالة^(٤).

(١) نفح الطيب ٥ / ٢٣٠.

(٢) نفح الطيب ٥ / ٢٣٠.

(٣) نفح الطيب ٥ / ٢٣٠.

(٤) نفح الطيب ٥ / ٢٣١.

نقلت من خط المجاصى ثم قرأته عليه، فحدثنى قال: حدثنى القاضى أبو زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى بن أبى بكر بن عصفور، قال: حدثنى جدى يحيى المذكور، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبى المقرئ بتلمسان، حدثنا الحافظ أبو محمد - يعنى والله أعلم - عبد الحق الإشيلى. حدثنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل. حدثنا أبو الفتوح: عبد الغافر بن الحسين ابن أبى الحسن بن خلف الألمعى، أخبرنا أو نصر أحمد بن إسحاق النيسابورى، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى، حدثنا محمد بن على بن الحسين العلوى، حدثنا عبد الله بن إسحاق اللغوى - وأنا سألته - حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى، حدثنا عبد الله بن نافع، عن عيسى بن يونس، عن الأعمش، عن أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله - ﷺ: قال لى جبريل: ألا أعلمك الكلمات التى قالهن موسى حين انفلق البحر، قلت: بلى، قال: قل: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن مسعود، ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله - ﷺ، ثم تسلسل الحديث على ذلك كل أحد من رجاله - يقول: ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان - لشيخه، وقد سمعت المجاصى يكررها كثيرا وما تركتهن منذ سمعتهن منه (١).

وأنشدنى المجاصى وقال: أنشدنى نجم الدين الواسطى، وقال: أنشدنى شرف الدين الدمياطى وقال: أنشدنى تاج الدين الأرموى مؤلف «الحاصل» وقال: أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه (٢):

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣١.

(٢) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣٢.

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
 وأرواحنا فى وحشة من جسوننا وحاصل ديانا أذى ووبال
 ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
 وكم من رجال قد رأينا ودولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
 وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا والجبال جبال
 وتوفى المجاصى فى العشر الآخر من شهر ربيع الأول من عام أحد
 وأربعين (١).

ومنهم الشيخ الشريف القاضى الرحلة المعمر، أبو على حسن بن
 يوسف بن يحيى الحسينى السبتي، أدرك أبا الحسين بن أبى الربيع وأبا القاسم
 العزفى، واختص بابن عبيدة وابن الشاط، ثم رحل إلى المشرق فلقى ابن
 دقيق العيد وحلبته، ثم قفل فاستوطن تلمسان - إلى أن مات فيها سنة أربع
 وخمسين أو ثلاث وخمسين وسبعمائة. قرأ علينا حديث الرحمة، وهو أول
 حديث سمعته منه. قال: حدثنا الحسن بن على بن عيسى بن الحسن اللخمي
 - وهو أول حديث سمعته منه. قال: حدثنا على بن المظفر بن القاسم
 الدمشقى - وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو الفرج محمد بن
 عبد الرحمن بن أبى العز الواسطى - وهو أول حديث سمعته منه، قال:
 حدثنا أبو العز عبد المغيث بن زهير - وهو أول حديث سمعته منه، قال:
 حدثنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامى - وهو أول حديث سمعته منه.

(١) نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣٢.

(ح) (١) قال الحسن بن علي: وحدثنا أيضا - عاليا - الحسن بن محمد ابن محمد البكري - وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفتوح محمد ابن محمد بن محمد بن الجنيد الصوفي - وهو أول حديث سمعناه منه، حدثنا زاهر بن طاهر - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الفضائل عبد الوهاب بن صالح عرف بابن المعزم (٢) إمام جامع همذان بها - وهو أول حديث سمعته منه - حدثنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك - وهو أول حديث سمعته منه حفظا، حدثنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن مخمش الزيادي - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا سفيان بن عيينة - وهو أول حديث سمعته منه، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس مولى لعبد الله بن عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله - ﷺ قال: الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء (٣).

(ح). وحدثني الشريف أيضا كذلك قال: حدثني السلفي كذلك بأسانيده المشهورة فيه. وهذا الحديث أخرجه الترمذي.

(١) جرت عادة علماء مصطلح الحديث - إذا كان للحديث إسنادان فأكثر. وجمعوا بين الأسانيد في متن واحد - أنهم إذا انتقلوا من إسناد إلى إسناد آخر، كتبوا بينهما حاء مفردة مهملة كذا (ح) اختصاراً من كلمة «تحويل».

(٢) في نفح الطيب: «المغرم».

(٣) نفح الطيب ٥/٢٣٢.

وقال حديث حسن صحيح. قال لى الشريف: قال لى القاضى أبو العباس الرندى، لما قدم أبو العباس بن الغمار من بلنسية، نزل بجاية، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع، فجاء عبد الحق يوما وعليه برنس أبيض وقد حسنت شارته وكملت هيئته، فلما نظر إليه ابن الغمار أنشده:

لبس البرنس الفقيه فباهى وأرى^(١) أنه المليح فتساها

لو زليخا رآته حين تبدى لتمنتته أن يكون فتاها^(٢)

وبه أن ابن الغمار جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يهلّوه، وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهله، فردهم معه فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة! وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم، فأنشدنا فيه:

توارى هلال الأفق عن أعين الورى وأرعى حجاب الغيم دون محياه

فلما تصدى لارتقاب شقيقه تبدى له دون الأنام فحياه^(٣)

وقال - رحمه الله: سمعت الشريف يقول: أول رجل عمل فى الدنيا:

بالله يا طير مدلل مر بنى وسط القفار

إياك نجى لك لعاده ترمى حجيره فى دارى^(٤)

ومنهم قاضى جماعتها، وكاتب خلافتها، وخطيب جامعها، أبو عبد الله محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى، من ولد عقبة بن عامر

(١) فى نفح الطيب: «ورأى».

(٢) نفح الطيب ٥/٢٣٣.

(٣) نفح الطيب ٥/٢٣٤.

(٤) نفح الطيب ٥/٢٣٤.

الفهرى، نزلها سلفه قديما، وخلفه بها إلى الآن، توفى فى أواسط سنة
خمس وثلاثين وسبعمائة. وشهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين، وولى
ابنه أبا على منصورا - مكانه - يومئذ، ولما ثقل لسانه، دعا ابنه هذا فقال له:
اكتب هذين البيتين، فإنى نظمتهما على هذه الحالة، فكتب:

إلهى مضت للعمر سبعون حجة جنيت بها لما جنيت الدواهيا
وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه فجد لى برحمى منك نعم الدواهيا^(١)
ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المكودى من
المغرب، رفع إليه قصيدة أولها:

سرت والدجى لم يبق إلا يسيرها نسيم صبا يحيى القلوب مسيرها
وفيهما الأبيات العجائب التى سارت سير الأمثال، وهى قوله:

وفى الكلة الحمراء حمراء لو بدت لشكلى لولى ثكلها وثبورها
فما بسوى مثوى لها من سوى القنا خيام ومن يبيض الصفاح ستورها
وما بسوى صدق الغرام أرومها ولا بسوى زور الخيال أزورها
فأحسن إليه، وكلم السلطان حتى أرسل جرايته عليه، وقد شهدت
المكودى وهذه القصيدة تقرأ عليه^(٢).

ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو
التميمى، أدرك ابن زيتون، وأخذ عن أبى الطاهر بن سرور وحلبته، وعنه

(١) نفح الطيب ٢٣٤/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٣٥/٥.

أخذت شرح المعالم له، وولى القضاء بتلمسان مرات، فلم تستفزه الدنيا، ولا باع الفقر بالغنى^(١).

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور.

قاضي الجماعة - بعد ابن أبي عمرو، وكانت له رحلة إلى المشرق، لقي بها جلال الدين القزويني وحلبته، وتوفي بتونس في الوفاء العام في حدود الخمسين وسبعمائة^(٢).

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن البروني،

قدم عليها من الأندلس، فأقام إلى أن مات. سمعته يقول: البقر العدوانية، كالإبل المهيمة في الصحراء، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها^(٣).

ومنهم أبو عمران موسى بن يمويمن المصمودي، الشهير بالبخاري.

سمعت البوني يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخاري، ورفيق له يدرس صحيح مسلم، فكانا يعرفان بالبخاري ومسلم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكنه من الإعذار في الصحيحين؟ فضحك القاضي وأصلح بين الخصمين.

سأله عما ضربه ابن هدية عليه من إباحته الاستياك في رمضان بقشر الجوز، فقال لى: نعم ويبلغ ريقه. تأول - رحمه الله - أن الخصال المذكورة

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٦.

فى السواك إنما تجمع فى الجوز، فكان يحمل كل ما روى فىه علىه، وهذا غلط فاحش، لأن العرب لا تكاد تعرفه، ونظر إلى ما فى البخارى من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم، ولا بأس أن يتلع ريقه - يعنى الصائم فى الجملة، فحملة على المستاك بالجوز.

وكان رحمه الله - قليل الإصابة فى الفتيا كثير المصيبات عليها^(١).

ومنهم: نادرة الأعصار، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن على بن النجار.

قال لى العلامة الأبلى: ما قرأ أحد على حتى قلت له: لم يبقى عندى ما أقول لك غير ابن النجار.

سمعت ابن النجار يقول: مر عمل الموقتين على تساوى فضلتى ما بين المغرب والعشاء والفجر والشمس، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثمانى عشرة درجة، وبالفجر لبقائها، والجارى على مذهب مالك أن الشفق الحمرة، وأن تكون فضلة ما بين العشائين أقصر، لأن الحمرة ثانية الغوارب والطوالع، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس، فعرضت كلامه - هذا على المزوار أبى زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائى فصوبه^(٢).

وذكرت يوما حكاية ابن رشد الاتفاق فى الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر، واعترضته بما فى الإكمال عن ابن وضاح أنها لا تطهر. فقال لى: لا

(١) نفح الطيب ٢٣٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٣٦/٥.

معتبر بقول ابن وضاح هذا، لأنه يلزم عليه تحريم الخل، لأن العنب لا يصير خلا حتى يكون خمرا. و- وفيه بحث^(١).

وذكرت يوما قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقراية، وهى أصوله وفصوله وفصول أول أصوله، وأول فصل من كل أصل وإن علا فقال: إن تركب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلت وإلا حرمت، فتأملته فوجدته كما قال، لأن أقسام هذا الضابط أربعة: التركب من الطرفين، كابن العم وابنة العم، مقابله: كالأب والبنت، التركب من قبل الرجل، كابنة الأخ والعم، مقابلة: كابن الأخت والخالة^(٢).

وأنشدت يوما عنده على زيادة اللام:

باعد أم العمر من أسيرها^(٣) - البيت.

فقال لى: وما يدريك أنه أراد العمر الذى أراد المعرى فى قوله:

وعمر هند كأن الله صوره عمرو بن هند يعنى الناس تعنينا وأضاف اللام إليه - كما قالوا، أم الحليس، قلت: ولا يندفع هذا بثبوت كون المعنية تكنى أم عمرو. لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر فتكون: أم عمرو، وأم العمر^(٤).

قال ابن النجار: بعثت بهذه الأبيات من نظمى إلى القاضى أبى عبد الله ابن هدية، فأخرج لغزها:

(١) نفح الطيب ٢٣٧/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٣٧/٥.

(٣) فى المطبوع: «باعد العمر...» وهو غير صحيح عروضيا والبيت من الرجز، وتمامه: «حراس أبواب على قصورها».

(٤) نفح الطيب ٢٣٨/٥.

إن حروف اسم من كلفت به خفت على كل ناطق بفم
 سائغة سهلة مخارجها أجل بهذا تزداد في الكلم
 صحفه ثم أقبلن مصحفه فعل ذكى مهذب فهم
 واطلبه في الشعر جد مطلبه تجده كالصبح لاح في الظلم
 فإن تأملت بت منه على علم وإلا فأنت عنه عمى
 واللغز سلمان وموضعه «تأملت بت» وتوفى - رحمه الله - بتونس أيام
 الوباء العام (١).

ومنهم الأستاذ المقرئ الرواية الرحلة، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن
 سبع (٢) بن مزاحم المكناسي، ورد علينا من المشرق، فأقام معنا أعواماً، ثم
 رحل إلى فاس، فتوفى بها في الوباء العام، جمعت عليه السبع، وقرأت عليه
 البخاري والشاطبتين وغير ذلك، فأما البخاري، فحدثني به قراءة على أحمد
 ابن الشحنة الحجار في سنة ثلاثين وسبعمائة، وكان الحجار قد سمعه على بن
 الزبيدي في سنة ثلاثين وستمائة، وهذا ما لا يعرف له نظير في الإسلام، وقد
 قال عبد الغني الحافظ: لا نعرف في الإسلام من وازاه غير عبد الله بن محمد
 البغوي في قدم السماع، فإنه توفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة. قال ابن خلاد:
 سمعناه يقول: حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني سنة خمس وعشرين
 ومائتين، وسمعه ابن الزبيدي على أبي الوقت بسنده قال لي ابن مزاحم: هذا
 طريق كله سماع. أما الشاطبتان، فحدثني بهما قراءة عليه جميعهما، عن
 بدر الدين بن جماعة بقراءتهما عليه، عن أبي الفضل هبة الله بن الأزرق

(١) نفح الطيب ٢٣٨/٥.

(٢) هذا المثلث من نفح الطيب، والذي في المطبوع: «بن سبع».

بقراءتهما عليه عن المؤلف - كذلك، وحدثني بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة
عن المؤلف ابن مالك وغير ذلك^(١).

ومن ورد عليها لا يريد الإقامة بها، شيخى وبركتى وقودتى: أبو عبد
الله محمد بن حسين القرشى الزيدى التونسى.

حدثنى بالصحيحين قراءة لبعضهما ومناولة لجميعهما، عن أبى اليمن
ابن عساكر، لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور. وحدثنى
أيضا، أن أبا منصور العجمى حدثه بمحضر الشيخين، والده حسين وعمه
حسن، وأثنى عليه دينا وفضلا - أنه أدخل ببعض بلاد المشرق على المعمر
أدخله عليه بعض ولد ولده، فألقاه ملفوفا فى قطن، وسمع له دويا كدوى
النحل، فقال له: ألقى رسول الله - ﷺ رأيته؟ قال: نعم، قلت ليس فى
هذا ما يستراب منه إلا الشيخ المعمر، فإننا لا نعرف حاله، فإن صح، فحديثنا
عنه ثلاثى، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلا يسمى بعثمان، معه
تسعون حديثا، يزعم أنه سمها من المعمر. وقد أخذت عنه وكتبت منه، فهذا
ثنائى^(٢)، وأمر المعمر غريب، والنفس أميل إلى نفيه^(٣).

ومنهم إمام الحديث والعربية، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية، أبو
محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى السبتي.

جمع فأوعى، واستوعب أكثر المشاهير وما سعى، فهو المقيم الظاعن،
الضارب القاطن، سألتنى عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس، فقلت له:
زعم الخسروشاهى أنه ليس بالديار المصرية من يعرفه غيره، وأنا أقول: ليس

(١) نفع الطيب ٥/٢٣٨.

(٢) هذا المثبت من نفع الطيب، والذي فى المطبوع: «ثنائى».

(٣) نفع الطيب ٥/٢٣٩.

فى الدنيا عالم إلا وهو يعلمه غيره، لأنه حكم لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعدل عمر ونحوه، فاستحسن ذلك، وكان ينكر إضافة الحول إلى الله عز وجل، فلا يجوز أن يقال بحول الله وقوته، قال: لأنه لم يرد إطلاقه، والمعنى يقتضى امتناعه، لأن الحول كالحيلة أو قريب منها، وتوفى بتونس أيام الوباء العام^(١).

ومنهم الفقيه المحقق الفرضى المدقق، أبو عبد الله محمد بن سليمان^(٢) ابن على السطى.

قرأت عليه كتاب الخوفى علما وعملا، قال لى فى قول ابن الحاجب: والثلث والثلث والسادس من أربعة وعشرين - هذا لا يصح، إذ لا يجتمع الثلث والثلث فى فريضة، وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحب المقدمات، وسألت عنه ابن النجار فقال لى: إنما أراد المقام لأنه يجتمع مع الثلثين، والإنصاف أنه لا يحسن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره، فكان الوجه أن يقول: والثلثان أو ومقام الثلث ونحو ذلك، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرا لا تحقيقا - كما فى الجواهر. وانظر باب المدير من كتاب الخوفى، فإن فيه وافقة السبعة لعدد لا توافقه، فهو من باب الفرض، وعليه ينبغى أن يحمل كلام ابن الحاجب^(٣).

ومنهم: الأستاذ أبو عبد الله الرندى. والقاضى أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الرازق الجزولى. والقاضى أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبى يحيى - فى كثير من الخلق. فلنضرب عن هذا^(٤).

(١) نفح الطيب ٥ / ٢٤٠.

(٢) هذا المثلث من نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «أبو عبد الله بن سليمان».

(٣) نفح الطيب ٥ / ٢٤٠.

(٤) نفح الطيب ٥ / ٢٤١.

ومن شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد
ابن إبراهيم بن علي الخياط.

أدرك أبا إسحاق الطيار، وقد صافحته - وأنا صغير، لأنه توفي سنة
تسع وعشرين بمصافحته إياه بمصافحته الشيخ أبا تميم، بمصافحته أبا مدين،
بمصافحته أبا الحسن بن حرزهم، بمصافحته ابن العربي، بمصافحته الغزالي،
بمصافحته أبا المعالي، بمصافحته أبا طالب المكي، بمصافحته أبا محمد
الجزيري، بمصافحته الجنيد، بمصافحته سريا، بمصافحته معروفًا، بمصافحته
داود الطائي، بمصافحته حبيبا العجمي، بمصافحته الحسن البصري، بمصافحته
علي بن أبي طالب، بمصافحته رسول الله - ﷺ (١).

ومنهم خطيبها المصقع، أبو عبد الله محمد بن علي بن الجمال.

أدرك محمد بن رشد البغدادي. صاحب الزهر والوتريات على حروف
العجم، والمذهبة، وغيرها، حدثني عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه
بتلمسان سبعون رجلاً (٢).

ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان، أبو عبد الله محمد وأبو العباس
أحمد، ابنا ولي الله أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق
العجيسي.

كساني محمد خرقة التصوف بيده كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد
الله الحبشي، خدام الشيخ أبي مدين، كما كساه أبو مدين، قال محمد بن

(١) نفح الطيب ٥ / ٢٤١.

(٢) نفح الطيب ٥ / ٢٤٢.

مرزوق، وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وخدم أبا مدين -
نحو من خمسة عشر عاما - إلى أن توفي في عام تسعين وخمسمائة، ثم
عاش بعده أكثر من مائة سنة، ولبس أبو مدين من يد ابن حزمهم، ولبس ابن
حزمهم من يد ابن العربي. واتصل اللباس اتصال المصافحة^(١).

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن^(٢) بن يعقوب بن علي الصنهاجي.

المكتب، حدثنا عن قاضيها أبي زيد عبد الرحمن بن علي الدكالي، أنه
اختصم عنده رجلان في شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادعى أنها
ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع [عنده] أنها ضاعت من غير تضييع.
فقال: كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها؟ فحكم
عليه بالغرم. فقليل له في ذلك، فقال: تأولت قول عمر، ومن ضيعها فهو لما
سواها أضيع^(٣).

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد القرموني.

مكتبي الأول، ووسيلتي إلى الله عز وجل، قرأ على الشيخين أبوي عبد
الله القصري وابن حريث وحج حجات، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة
دينار عيونا، سافر إلى الحج، وكان بصيرا بتعبير الرؤيا، فمن عجائب شأنه
فيه أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان
من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبو جمعة بن علي التلاسي
الجرائحي منهم كأنه قائم على سانية دائرة وجميع قواديسها يصب في نقيير في
وسطها، فجاء ليشرب، فلما اغترف الماء إذا فيه فرث ودم فأرسله، ثم اغترف

(١) نفح الطيب ٢٤٢/٥.

(٢) هذ الصواب من نفح الطيب، والذي في المطبوع: «أبو زيد بن عبد الرحمن».

(٣) نفح الطيب ٢٤٢/٥، وما بين حاصرتين منه.

فإذا هو كذلك ثلاثا أو أكثر، فعدل عنه فرأى خصة ماء. وشرب منها، ثم استيقظ وهو [فى] (١) النهار. فأخبره فقال: إن صدقت رؤياك فنحن عن قليل خارجون عن هذا المكان. قال: كيف؟ قال: السانية الزمان، والنكير السلطان، وأنت جرائحى تدخل يديك فى جوفه، فينالها الفرث والدم (٢).

وهذا ما لا نحتاج معه، فلم يكن إلا ضحوة الغد، وإذا النداء عليه، فأخرج فوجد السلطان مطعوناً بخنجر. فأدخل يده، فنالها الفرث والدم، فخاط جراحته ثم خرج فرأى خصة ماء، فغسل يديه وشرب، ثم لم يلبث السلطان أن توفى وسرحوا (٣).

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر. فلنصفح عنهم ولنختم فصل من لقيته بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة، أحدهما عالم الدنيا: والآخرة نادرتهما.

أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد إبراهيم بن أحمد العبدري الأبلق التلمسانى سمع جده لأمه أبا الحسين بن غلبون المرسى القاضى بتلمسان، وأخذ عن فقهاء أبي الحسين التنسى وابن الإمام، ورحل فى آخر المائة السابعة، فدخل مصر والشام والحجاز والعراق، ثم قفل إلى المغرب، فأقام بتلمسان مدة، ثم فر أيام (٤) أبى حمو موسى بن عثمان إلى المغرب.

حدثنى أنه لقى أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط، شقيق شيخنا أبى عثمان المتقدم ذكره، فشكا له ما يتوقعه من شر أبى حمو، فقال له: عليك

(١) تكملة من نيل الابتهاج.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٤٣.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٣، والإحاطة ٢/ ٢٠١، ونيل الابتهاج، ج ٢/ ٨٠.

(٤) فى المطبوع: «أمام» والمثبت رواية النفع.

بالجبل، فلم يدر ما قال حتى تعرض له رجل من غمارة، فعرض عليه الهروب به، قال: فخفت أن يكون أبو حمو قد دسه على، فتنكرت له فقال لى: إنما أنا أسير بك على الجبل، فتذكرت قول أبى إسحاق، فواطأته وكان خلاصى على يده، ولقد وجدت العطش فى بعض مسيرى معه، حتى غلظ لسانى، واضطربت ركبتاى فقال لى، وإن جلست قتلتك لئلا أفتضح بك، فكنت أقوى نفسى، فمر على بالى فى تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس وتوسله به. فوالله ما قلت شيئاً حتى رفع لى غدیر ماء. فأريته إياه، فشربنا ونهضنا^(١).

ولما دخل المغرب. أدرك أبا العباس ابن البناء. فأخذ عنه وشافه كثيراً من علمائه، قال لى: قلت لأبى الحسن الصغير: ما قولك فى المهدي؟ فقال: عالم سلطان. فقلت: قد أبنت^(٢) عن مرادى، ثم سكن جبال الموحدين، ثم رجع إلى فاس، فلما افتتحت تلمسان، لقيته بها، فأخذت عنه، فقال لى الأبلى، كنت يوماً مع القاسم بن محمد الصنهاجى، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها:

خيرات ما تحويه مبدولة ومطلبى^(٣) تصحيف مقلوبها
فقال لى: ما مطلبه؟ فقلت: نارنج^(٤).

دخل على الأبلى - وأنا عنده بتلمسان - الشيخ عبد الله الدباغ الملقى المتطبب، فأخبرنا أن أديبا استجدى وزيراً بهذا الشطر:

(١) نفح الطيب ٢٤٤/٥.

(٢) فى الأصل: «أنبات» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «ومطلب» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٢٤٤/٥.

ثم حبيب^(١) قل ما ينصف

فأخذته فكتبته ثم قلبته وصحفته، فإذا هو قصبتا ملف شحمي^(٢).

ومر الدباغ علينا يوما بفاس، فدعاه الشيخ فلباه، فقال: حدثنا بحديث اللطافة، فقال: نعم، حدثني أبو زكرياء بن السراج الكاتب بسجلماسة، أن أبا إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل، وكان ابن السراج قد لقيهما، اصطحبا في مسير، فأواهما الليل إلى مجشر، فسألا عن طالبه، فدلا فاستضافاه فأضافهما، فبسط قطيفة بيضاء، ثم عطف عليهما بخبز ولبن، وقال لهما: استعملا من هذه اللطافة حتى يحضر عشاؤكما، وانصرف فتحاورا في اسم اللطافة لأي شيء هو منهما حتى ناما، فلم يرع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول: قد وجدت اللطافة، قال: كيف؟ قال: أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على سمع هذا البدوي، فضلا عن أن يراه، ثم رجعت القهقهري حتى وقعت على قول النابغة:

بمخضب رخص كأن بنانه عثم يكاد من اللطافة يعقد

فسنح لبالي أنه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق: اللين، فجعل إحدى النقطتين للطاء، فصارت اللطافة اللطافة، واللين: اللين، وإن كان صحف عثم بغنم، وظن أن يعقد جبن فقد قوى عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه، فلما جاء سألاه، فأخبرهما أنها اللين، واستشهد بالبيت كما قال مالك^(٣).

(١) هذا المثلث في نفح الطيب ٢٤٥/٥ ونيل الابتهاج ٩٧/٢ والذي في المطبوع: «طبيب».

(٢) نفح الطيب ٢٤٥/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٤٥/٥.

ولا تعجب من مسالك، فقد ورد فاسا شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي - عرف بابن المسفر - رسولا عن صاحب بجاية، فزاره الطلبة فكان فيما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاما وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ويستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: ثبت في بعض العلوم العقلية، أن المركب مثل البسيط في الجنس، والبسيط مثل المركب في الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فرجعوا به إلى الشيخ الأبلی، فتأمله ثم قال: هذا كلام مصحف، وأصله أن المركب قبل البسيط في الحس، والبسيط قبل المركب في العقل، وأن الحس أقوى من العقل، وأخبروا ابن المسفر فليج. فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوه في بعضها كما قال الشيخ: «والله يؤتى فضله من يشاء»^(١).

قال لي الأبلی: لما نزلت تازة، بت مع أبي الحسن بن بري وأبي عبد الله الترجالي، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما عن الكلام. فاستكشفتها عن معنى هذا البيت للمعري:

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم
فجعلنا يفكران فيه، فتمت حتى أصبح ولم يجدها، فسألاني عنه،
فقلت: معناه أقول لعبد الله لما وهى سقاؤنا ونحن بوادي عبد الشمس شم لنا
برقا. قلت وفي جواز مثل هذا نظر^(٢).

سمعت الأبلی يقول: دخل قطب الدين الشيرازي والديران على فضل

(١) نفح الطيب ٢٤٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٤٦/٥.

الدين الخونجي بسبلده - وقد تزيا بزى القونوية . فسأله أحدهما عن مسألة فأجابه، فتعايا عن الفهم . وقرب التقرير فتعايا، فقال الخونجي متمثلاً :

على نحت^(١) المعانى من معادنهما وما على لكم أن تفهم البقر

فقال له : ضم التاء يا مولانا، فعرفهما فحملهما إلى بيته .

. قلت : سمعت شمس الدين الأصبهاني بخانقاه قوصون^(٢) بمصر يقول :

إن شيخه القطب توفى عام أحد عشر وسبعمئة، وله سبع وسبعون سنة وهذا يضعف هذه الحكاية - عندى^(٣) .

سمعت الأبلی يقول إن الخونجي ولى قضاء مصر بعد عز الدين ابن عبد السلام، فقدم شاهداً كان عز الدين أخره . فعذله فى ذلك . فقال : إن مولانا لم يذكر السبب الذى رفع يده من أجله، وهو الآن غير متمكن من ذكره^(٤) .

سمعت الشيخ الأبلی يحدث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر فى المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث : مذهب ابن سبعين، وتملك الكفار للعراق . واستعمال الحشيشة^(٥) .

سمعت الأبلی يقول : قال أبو المطرف بن عميرة :

فضل الجمال على الكمال بوجهه فالحق لا يخفى على من وسَّطه
وبطرفه سقم وسحر قد أتى مستظهراً بهما على ما استنبطه

(١) فى الأصل : «جلب» والمثبت رواية نفح الطيب .

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي فى المطبوع : «بخانقة قيسوم» .

(٣) نفح الطيب ٢٤٧/٥ .

(٤) نفح الطيب ٢٤٧/٥ .

(٥) نفح الطيب ٢٤٧/٥ .

عجبا له برهانه بشروطه معه فما مقصوده بالسفسطه

قال: فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال:

علم التباين فى النفوس وأنها منها مغلطة وغير مغلطة

فئة رأت وجه الدليل وفرقة أصغت إلى الشبهات فهى مورطة

فأراد جمعها معا فى ملكه هذى بمتجعة وذى بمغلطة

يعنى قولهم فى التام هو ما تحمل فى البرهان الفصل. وأخبار الأبلَى
وَأَسْمَعَتْنِي مِنْهُ تَحْتَمِلُ كِتَابًا، فَلْنَقِفْ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْهَا^(١).

وأما النادرة، فأبو عبد الله محمد بن أحمد بن شاطر الجمحى
المراكشى.

صحب أبا زيد الهزميرى كثيرا، وأبا عبد الله بن تَجَلَّات^(٢) وأبا العباس
ابن البناء، وأضرابه من المراكشين ومن جاورهم، ورزق بصحبة الصالحين
حلاوة القول، فلا تكاد تجد من يستثقله وربما سئل عن نفسه فيقول: ولى
مفسود^(٣).

قلت له يوما: كيف أنت؟ فقال: محبوس فى الروح وقال: الليل
والنهار حرسيان، أحدهما أبيض، والآخر أسود، وقد أخذنا بمجامع الخلق
يجرأنهم إلى يوم القيامة وإن مردنا إلى الله. وسمعته يقول: المؤذنون يدعون
أولياء الله إلى بيته لعبادته، فلا يصدّهم عن دعائهم ظلمة ولا شتاء ولا طين.

(١) نفح الطيب ٢٤٧/٥.

(٢) هذا الصواب فى نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «تيجلات».

(٣) نفح الطيب ٢٤٨/٥.

ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبن له، فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم^(١).

ووجدته ذات يوم في المسجد ذاكرا، فقلت: كيف أنت؟ فقال: ﴿... فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝﴾ [الروم] فهممت بالانصراف، فقال: أين تذهب من روضة من رياض الجنة، يقام بها على رأسك بهذا التاج^(٢) - وأشار إلى النار مملوءا: الله أكبر^(٣).

مر ابن شاطر يوما على أبي العباس أحمد بن شعيب الكاتب - وهو جالس في جامع الجزيرة - طهره الله - وقد ذهبت به الفكرة، فصاح به، فلما رفع رأسه إليه، قال له: انظر إلى مركب عزرائيل هذا، وأشار إلى نعش هنالك - وقد رفع شراعه، ونودي عليه: الطلوع يا غزي^(٤).

وأكل يوما مع أبي القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلجلانا، فقال لهم أبو القاسم: إن في الجلجلان لضربا^(٥) من طعم اللوز، فقال: ابن شاطر: وهل الجلجلان إلا لوزة دقة؟ وسئل عن العلة في نضارة الحداثة، فقال: قرب عهدا بالله، قيل له: فمم تغير الشيوخ؟ فقال: من بعد العهد من الله وطول الصحبة مع الشياطين، فقليل له: فَبَخَرُ أفواههم؟ فقال: من كثرة ما تفل الشياطين فيها: وكان يسمى الصغير فأر المصطكى.

(١) نفح الطيب ٢٤٨/٥.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي في المطبوع: «الباجي».

(٣) نفح الطيب ٢٤٨/٥.

(٤) نفح الطيب ٢٤٨/٥.

(٥) في المطبوع: «لطعما» والمثبت رواية نفح الطيب.

قال لى ابن شاطر: لقيت عمى ميمونا المعروف بديير لقرب موته وقد اصفر وجهه. وتغيرت حاله فقلت ما بالك؟.

فقال لى انسدت الزربطانة^(١) فطلع الخراء - يعنى العذرة. يشير إلى الاحتقان للطبيعة.

أنشدنى ابن شاطر قال أنشدنى أبو العباس بن البناء لنفسه.
قصدت إلى الوجازة فى كلامى لعلمى بالصواب فى الاختصار
فلم أحذر فهو ما دون فهمى ولكن خفت إرراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأنى وشأن البسط تفهيم الصغار
وأخبار ابن الشاطر عندى تحتمل كراسة، فلنقنع بهذا القدر^(٢).

فصل: ولما دخلت تلمسان على بنى عبد الواد تهيأ لى السفر منها، فرحلت إلى بجاية، فلقيت فيها أعلاما درجوا، فأمت بعدهم خلاء بلقعا.
فمنهم: الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى، عرف بابن المسفر. باحثه واستفدت منه. فسألنى عن اسم كتاب الجوهري. فقلت له: من الناس من يقول: الصحاح بالكسر. ومنهم من يفتح، فقال: إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح كما ذكره فى باب صح، قلت: ويحتمل أن يكون مصدر صح، وكتب لبعض أصحابه رسالة صدرها بهذين البيتين:

(١) فى هامش المطبوع: «الزربطانة: مجمع المياه القذرة يسد بزرب وشبهه وفى فاس حتى

يعرف اليوم بالزربطانة».

(٢) نفح الطيب ٢٤٩/٥.

وصلت صحيفتكم فهزت معطفى فكأنما أهدت كئوس القسرقف
وكانها نيل الأمانى لخائف أو وصل محبوب لصب مدنف^(١)
ومنهم قاضيها: أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى يوسف يعقوب
الزواوى.

فقيه ابن فقيه، كان يقول: من عرف ابن الحاجب أقرأ به المدونة، قال:
وأنا أقرأ به المدونة^(٢).

ومنهم أبو على حسين بن حسين، إمام المعقولات - بعد ناصر
الدين^(٣).

ومنهم: خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران، وكان قد ورد تلمسان،
وأورد بها على قول ابن الحاجب فى حد العلم: صفة توجب تمييزا لا يحتمل
النقيض - الخاصة إلا أن يزداد فى الحد لمن قامت به، لأنها إنما توجب فيه
تمييزا لا تمييزا، وهذا حسن^(٤).

ومنهم الشيخان أبو عزيز، وأبو موسى بن فرحان وغيرهم من أهل
عصرهم، ثم رحلت إلى تونس، فلقيت بها قاضى الجماعة وفقهها، أبا عبد
الله بن عبد السلام، فحضرت تدريسه، وأكثرت مباحثته، ولما نزلت بظاهر
تلقائى رجل من الطلبة، فسألنى عن هذه الآية: ﴿... وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
رِسَالَتَهُ...﴾ [المائدة] فإن ظاهرها أن الجزاء هو الشرط - أى: وإن لم

(١) نفح الطيب ٢٤٩/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٥٠/٥.

(٣) نفح الطيب ٢٥٠/٥.

(٤) نفح الطيب ٢٥٠/٥.

تبلغ، فما بلغت، وذلك غير مفيد، فقلت: بل هو مفيد - أى: وإن لم تبلغ في المستقبل، لم ينفعك تبليغك في الماضي، لارتباط أول الرسالة بآخرها، كالصلاة ونحوها، بدليل قصة يونس، فعبّر بانتقاء ماهية التبليغ عند انتقاء المقصود منه، إذ كان إنما يطلب له ولا يعتبر بدونه، كقوله عليه السلام: لا صلاة إلا بطهور^(١).

ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامعة بتونس، فسألته عن ذلك، فلم يزد على أن قال هذا مثل قوله عليه السلام، فمن كانت هجرته إلى الله - الحديث. وقد علمت ما قال الشيخ تقي الدين فيه. قلت: كلام تقي الدين لا يعطى الجواب عن الآية - فتأمل^(٢).

وقاضى المناكح أبا محمد الأجمي - وهو حافظ فقهاؤها في وقته، والفقهاء أبا عبد الله بن هارون، شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول، والخطيب أبا عبد الله بن الستار، وحضرت تدرسه بمدرسة المعرض. والعلامة أبا عبد الله بن الجياب الكاتب والفقهاء أبا عبد الله بن سلامة. والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر. وارث طريقة الشيخ أبي محمد المرجاني. آخر المذكورين بإفريقية^(٣).

ورأيت ابن الشيخ المرجاني فحدثني أبو موسى بن الإمام - أنه أشبه به من الغراب بالغراب!^(٤).

(١) في المطبوع: «قسطنطينة» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٢٥٠ / ٥.

(٣) نفح الطيب ٢٥١ / ٥.

(٤) نفح الطيب ٢٥١ / ٥.

وسيدى أبا عبد الله الزبيدي المتقدم ذكره، وأوقفنى على خطأ فى كتاب الصحاح وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العينين والأنف، قال: ومنه قول ابن عمر فى ابنه سالم - رضى الله عنه:

يديرونى عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم قال: وهذا أراد عبد الملك - حيث كتب إلى الحجاج: أنت منى كسالم، وهذا خطأ فاحش، وكان يلزمه أن يسميها بالعمارة أيضا لقوله - عليه الصلاة والسلام: عمارة جلدة ما بين عيني وأنفى، وإنما المراد بمثل هذا القرب والتحمد^(١).

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم، ثم قفلت إلى المغرب يسايرنى رجل من أهل قسنطينة^(٢) يعرف بمنصور الحلبى، فما لقيت رجلا أكثر أخبارا ولا أظرف نوادر منه، فمما حفظته من حديثه أن رجلا من الأدباء، مر برجل من الغرباء، وقد قام بين ستة أطفال، جعل ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن شماله، وأخذ ينشد:

ما كنت أحسب أن أبقى كذا أبدا أعيش والدهر فى أطرافه حتف
ساس بستة أطفال توسطهم شخصى كأحرف ساس وسطها ألف
قال: فتقدمت إليه وقلت: وأين تعريقة السين؟ فقال: طالب ورب
الكعبة، ثم قال للآخر من جهة يمينه: قم فقام يجر رجله كأنه مبطول،
فقال: هذا تمام تعريقة السين^(٣).

(١) نفح الطيب ٢٥١/٥.

(٢) فى المطبوع: «القسنطينية» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٢٥٢/٥.

ثم رحلت^(١) من تلمسان إلى المغرب، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسني والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتي، والشيخ الفقيه الصالح: أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيرواني، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتي وكان حافظ وقته، والفقيه أبا عبد الله بن عبد الكريم، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عمران الجزولي، والأستاذ أبا العباس المكناسي، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس ابن حزب الله، والأستاذ أبا عبد الله محمد بن القصار بتلمسان، ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم^(٢).

وكنت لقيت بتازي الفقيه أبا عبد الله بن عطية، والأستاذ أبا عبد الله المجاصي. والأستاذ أبا الحسين الجبار^(٣). وغيرهم.

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات، ثم وصلت إلى سبتة، فاستوعبت بلاد المغرب، ولقيت بكل بلد من لابد من لقاءه من علمائه وصلحائه، ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء الله، ثم أعملت الرحلة إلى الحجار، فلقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطي، رويت عنه واستفدت منه، وشمس الدين الأصبهاني الآخر، وشمس الدين بن عدلان، وقرأ على بعض شرحه لكتاب المازني، وناولني إياه. وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفي فقيه المالكية بها، وتاج الدين التبريزي الأصبهاني، وغيرهم ممن يطول ذكرهم^(٤)، ثم حججت، فلقيت بمكة إمام الوقت^(٥)

(١) في المطبوع: «دخلت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٢٥٢/٥.

(٣) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي في المطبوع: «أبا الحسن الجبار».

(٤) نفح الطيب ٢٥٣/٥.

(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي في المطبوع: «أبا الموقف».

أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن التوزري المعروف بخليل، وسأله يوم النحر حين وقفت بالمشعر الحرام عن بطن محسّر لأحرك فيه الجمل، فقال لي: تمالأ الناس على ترك هذه السنة حتى نسي بتركها محلها، والأقرب أنه هذا - وأشار إلى ما يلي الجاية التي على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعداً إلى منى، وما رأيت أعلم بالمناسك منه، والإمام أبا العباس رضي الدين الشافعي، وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد. وبالمدينة - أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي وغيره (١).

ثم أخذت على الشام، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية - صاحب الفقيه ابن تيمية، وصدر الدين الغماري المالكي، وأبا القاسم ابن محمد اليماني الشافعي وغيرهم، وبيت المقدس الأستاذ أبا عبد الله ابن مثبت، والقاضي شمس الدين بن سالم، والفقيه المذكر أبا عبد الله ابن عثمان وغيرهم (٢).

ثم رجعت إلى المغرب فدخلت سجلماسة ودرعة، ثم قطعت إلى الأندلس فدخلت الجبل وأصطبونة ومربلة ومالقة وبلش والحامة، وانتهت بي الرحلة إلى غرناطة، وفي علم الله ما لا أعلم، وهو المسئول أن يحملنا على الصراط الأقوم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم - انتهى ما قصدناه من رحلة أشهر أسلافنا الإمام القاضي أبي عبد الله المقرئ - رحمه الله - ذكرته بطولة لما فيه من الفائدة (٣).

(١) نفح الطيب ٥ / ٢٥٣.

(٢) نفح الطيب ٥ / ٢٥٤.

(٣) نفح الطيب ٥ / ٢٥٤.

وقد أَلَمَّ بذكر هذا الشيخ المَقْرِي - رحمه الله تعالى - العلامة ولي الدين بن خلدون^(١) - رحمه الله - في تاريخه الكبير، وقال فيه إنه كبير العلماء بالمغرب، وذلك عندما عرف بنفسه آخر التاريخ، ونص محل الحاجة منه: ولما رحلت من تونس متتصف شعبان من سنة أربع وثمانين، أقمنا في البحر نحو من أربعين ليلة، [ثم] وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر - على التخت، واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون، وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك وتمهيده له، وأقمت بالإسكندرية شهرا لتهيئ أسباب الحج، ولم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة من أول ذى القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملوك، تاج القصور والأواوين فى أوجه، وتزهو الخوانق والمدارس بأفائه، وتضئ البدور والكواكب من عليائه، وقد امتلأ بساط بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل بسيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات بثجه، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم، وما زلنا نحدث عن هذه البلدة وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال، وقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا بفاس، وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ، فقلت له: كيف كانت القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام، فسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية، فقال: كأنما انطلق أهله من الحساب - يشير إلى كثرة أئمة وأمنهم العواقب. وحضرت صاحبنا قاضى العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان - منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة

(١) نقله المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج ٥ ص ٢٥٤ وما بين الحاصرتين منه.

خمس وخمسين، وسأله عن القاهرة فقال: أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار - الذى يتخيله الإنسان، إنما يراه دون الصورة التى يتخيلها، لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك انتهى.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما،
والحمد لله رب العالمين.

٨ - روضة النيلوفر، فى ثناء الناس عليه

وذكر بعض مناقبه التى هى أذكى من المسك الأذفر

أقول: لا سبيل إلى حصر ثناء الناس على هذا الإمام. ولكن لابد من الإلماع بالنزر اليسير والإمام.

قال القاضى أبو البركات بن الحاج البليقى - رحمه الله: لما قدم أبو الفضل عياض على قرطبة، ولقى أبا الوليد بن رشد. ورأى نبهه وفضل ذكائه قال: عجباً لرجل ينشأ فى البلاد البحرية على أكل السمك من أين يكون له هذا النبل والذكاء، قال: فبلغ كلامه القاضى أبا الفضل فقال: والله ما أكلت سمكاً منذ عقلت. انتهى.

قال بعض الأسياف: يريد - والله أعلم - منذ عقل أضرار السمك بالحفظ وتبليده للذهن - والله أعلم.

وهكذا ذكر غير واحد. وسمعت فى بعض المجالس العلمية ما فيه بعض مخالفته لهذا، وهو أن ابن رشد كتب إلى القاضى عياض، عجباً - ولم يزد على هذه اللفظة شيئاً. فأجابه القاضى عياض بقوله: والله قط - ولم يزد فلم يفهم الناس، فسألوا ابن رشد فقال: أردت بقولى عجباً: عجباً لرجل ينشأ فى البلاد البحرية إلى آخره. وأراد أبو الفضل عياض بقوله: والله قط - أنه لم يأكله قط. غير أنى لم أر ذلك على هذا الوجه منصوصاً. وإنما هو شىء سمعته.

وأما الوجه الأول. فذكره ابن خاتمة وأبو البركات وغير واحد - والله أعلم.

وقال ولده: أخبرني ابن عمي الزاهد، أن القاضي أبا عبد الله بن حمدين كان يقول له - وقت رحلته إليه - وحقي يا أبا الفضل إن كنت تركت في المغرب مثلك! وقال: وأخبرني أن أبا الحسين بن سراج قال له - وقد أراد الرحلة إلى بعض الأسياف - لهو أحوج إليك منك إليه. وقال إن الفقيه أبا محمد بن أبي جعفر قال له: ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض.

قال ابن الخطيب - رحمه الله - ومثل هذا كثير - يعني ثناء الأعلام على القاضي عياض - رحمه الله.

وحكى غير واحد منهم: ابن جابر الوادي أشي - أن القاضي أبا الفضل. لما ألف كتاب الشفا. أوقف عليه شيخه الإمام الحافظ أبا بكر بن العربي - رحمهما الله تعالى، فقال له: بارك الله فيك يا أبا الفضل، واستحسنه جدا! وأثنى عليه الناس سواء، وما أحسن قول الإمام أبي عمرو الملقى - رحمه الله يمدح القاضي أبا الفضل عياضا.

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم والظلم بين العبالين قديم
جعلوا مكان الرء عينا فى اسمه كى يكتـمـوه وإنه معلوم
لولا ما فاحت أباطح سبـتة والروض حول فنائها معدوم

قلت: تذكرت هنا من هذا المعنى، ما كتب إلى به صاحبنا الكاتب
البليغ، جام أشـتات الآداب، سيدى محمد المكلاـتى فى شأن هذا الكتاب
الموسم بـ «أزهار الرياض فى أخبار عياض» ونصه:

أتى برياض فى عياض وردھا مظالم كانت قبل معضلة الداء
وفاضت بنيل العلم منه أصابع فلا تنكرن نبع الأصابع بالماء

خليلي هذي معجزات لأحمد فلا تعجب إن رد عينا إلى الراء
ووصل هذه الأبيات بثر نصه: تأملت ما سطره سيدنا - لا زال قلمه
فرعا يشمل بظله، ويتصرف في ثناء الثناء بمعرفته وعدله - فرأيت الكواكب
الوقادة تهاوت بهذا الرياض، وسالت به المجرة نهرا فراقت منها الخلجان
والحياض، فسجد لك الكلام واقترب، وباعتك رعايا المعاني منشدة "فسمعا
لأمر أمير العرب «والسلام» انتهى.

ولاحفاء أنه أشار بالبيت الأول إلى معنى أبيات الملقى الثلاثة، ثم أتى
في البيت الثاني والثالث بالعجب العجيب حسبما يدركه من له أدنى تعلق
بالبلاغة، وما رأيت ولا سمعت قط بمثل هذا الاتفاق الذي اتفق له في هذين
البيتين، لا سيما قوله: إن رد عينا إلى الراء، على أن مثل هذا ليس فيه إلا
ترفع قدر النبي - ﷺ، والإشارة إلى بعض معجزاته الشهيرة على طريق
التلميح، لا كما توهمه بعض الأغمار بما لا يليق ذكره - والأعمال بالنيات.

وللفقيه الأديب الماهر، أبي محمد محارب بن محمد بن محارب الوادي
أشى يمدح القاضي عياضا أثناء مقامه من إنشائه:

غدا سلس القياد فما يراض	وعم جميع لته البياض
وأضحى القلب لا تصيبه هند	ولا سلمى ولا الحندق المراض
ولا يشجعه طيب نسيم نجد	ولا تسليسه بالزهر الرياض
وأن غنى الحمام بغصن أيك	فمن عض الزمان به عضاض
وقائله: أتكرع في ثماد	وقد لاحت لرائدها الحياض
إلى كم ذا تقول لكل خطب	مقالة من ألم بها المخاض

وتنقبض انقباض العى حتى
ووجد بنى عياض بالمعالى
إذا قصدوا أثاروا الجنود بحرا
فقلت لها: ومن منهم عياذى
إمام رانه علم وحلم
يقارض من أساء بحسن صبر
ففى الآداب جدول ماء مزن
ويبرم ما يروم فليس يخشى
يهيم بكل معلوة وفضل
ومن تعلق حبال بنى عياض
أضر بك السكون والانقباض
مدى الدنيا حديث مستفاض
وسالوا بالمكارم ثم فاضوا
فقلت: ذاك سيدهم عياض
له بالخطبة العليا انتهاض
وأمر الدين والدنيا قراض
وفى الآراء بحر لا يخاض
على أمر إن أبرمه انتقاض
كما قد هام بالعليا مضاض
يداه فلا يضام ولا يهاض

وإذا تتبع هذا الباب، وقفت دون بلوغ مداه الألباب.

وأما مناقب الإمام أبى الفضل عياض - رحمه الله - فكثيرة، وكلها دال على ما له فى الرتبة الدينية من المزية الأثيرة، فمن ذلك ما حدث به المشيخة عن بعض الصالحين. قال: رأيت القاضى أبا الفضل - بعد موته فى المنام - وهو فى قصر عظيم جالس على سرير قوائمه من ذهب. قال: فكان يسألنى عن مسألة. فأقول له: يا سيدى، ذكر فيها فى كتابك الموسم ب «الشفاء» كيت وكيت. قال: فكان يقول لى: أعندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد يدك عليه، فبه نفعنى الله وأعطانى ما تراه.

وحدث بعضهم قال: رأيت القاضى أبا الفضل فى النوم إلى جانبه رجل

طيب الرائحة، جميل الصورة، حسن الثياب - كصفة النبي ﷺ، قال
الرائي: فكنت أقصد إلى سيدي عياض فأسلم عليه، فكان يقول لي: سلم
على هذا فأقول له: من هذا؟ فيقول لي: هذا هو الذي تفعني الله به.

نقلت هاتين المنقبتين من خط الشيخ الإمام أبي عبد الله سيدي محمد
ابن سعد التلمساني رحمه الله، وأظن أنه نقل ذلك عن الإمام الرحلة أبي
عبد الله بن رشيد الفهرى - والله أعلم.

ومن مناقب عياض، ما رأيت بخط ابن سعد التلمساني المذكور،
ونصه: حدثوا عن عياض أنه لما توفي والده - وكان من عباد الله الصالحين.
وخيار أهل العلم - ترك موروثا عنه سبعة عشر ألفا من الذهب، فترزه عنها
القاضي أبو الفضل، وتركها لأخيه - مع علمه بطيب مكسب والده،
ونزاهته. انتهى.

ومن مناقبه - رحمه الله - ما ذكره السيد الفقيه أبو الحسن الوضاحي -
رحمه الله في كتابه - أن أحد الملوك رُئى في منامه - بعد موته في القيامة،
والنار تسوق الناس إلى المحشر، وهو في حالة حسنة، وثياب حسان، يقول
الرائي: لا أقدر أن أصف حسن ثيابه، فكلما همت النار أن تلحقه أو تقرب
إليه، مد إليها يده، فترجع النار عنه مسيرة خمسمائة عام، فقلت له: ماهذا؟
فقال: كنت في الدنيا قد كتبت الشفا لعياض وحبست عنليه، وكسوت عليه
شرين كسوة في كل سنة كسوة للقارئ. فلما وقفت بين يدي ربي، أمر بي
إلى النار، فأنا كلما همت النار بي مددت إليها يدي، فترجع النار - كما ترى
- عني، وكساني بكل كسوة عشرين ألف حلة من حلل الجنة، فقلت له: وما
تنتظر؟ فقال: وهل تكون في النار ثياب الجنة؟ قلت: فادخل الجنة، قال:

الرسول - ﷺ - يشفع لى ويسجazy عنى أصحاب المظالم والحقوق التى وجبت على للناس ، فحيثأدأدخل الجنة - لأنه حرام على أحد أن يدخل الجنة ولأحد عليه مظلمة حتى يشفع فيها - انتهى . من خط بعض الأعلام من تلاميذه الشيخ ابن غازى - رحمه الله .

وحكى أن بعض الملوك كان مسرفا على نفسه فى اللهو وما لا يرضى الله ، فرفعت إليه رقعة فيها مكتوب : «حتى متى وإلى متى من هذا اللهو - والموت يطلبك»؟ فأعرض عن ذلك مدة، ثم رجع وندم، وشاور بعض خواصه فى وجه الخلاص، فدل على بعض صلحاء وقته، فلما شكأ إليه، قال له : ما أرى أفضل من خدمة الرسول - ﷺ ، فقال له : وبأى وسيلة أتقرب إليه - وأنا بعيد من طريقته؟ فقال له : بكتاب الشفا للقاضى عياض، ومن هناك يقع الصلح بينك وبين الرسول - ﷺ ، فمن ذلك اشتغل بنسخه والعطاء عليه، وكان يقرأه دائما، ورتب فى مجلسه قارئاً له، فظهرت عليه آثار القبول والمحبة شيئاً بعد شىء فى باطنه، واستنار من فيض حبيبته وشفيعه، وكبر شأن ملكه، وهادته الملوك بحسن نيته - إذ الأعمال بالنيات، ورأى الرسول - ﷺ - فى المنام، وأخبره بأمر من الغيب، وأمره بأشياء امتثلها، وكان يقول : ذلك كله من بركة الشفا لعياض، نقلته ملخصاً من خط من ذكر. ونقلت من خطه أيضاً - مانصه : وقد تكرر السماع من علماء فاس - ولا سيما من السيد القدوة أبى عبد الله بن غازى - رحمهم الله - أنهم قالوا : رأى بعض صلحاء فاس - نفع الله بهم - فى المنام - السلطان أبا عنان وهو بحالة حسنة وثياب حسان، فقال له : ما فعل الله بك؟ قال : غفر لى وأدخلنى الجنة، فقال له : ويم ذلك؟ قال : بتحيسى على قراءة الشفا للقاضى

عياض بمساجد فاس، غفر الله لى وضمن عنى الحقوق، وهنا رجاء عظيم،
وذلك قليل فى حق المصطفى - ﷺ - انتهى.

قلت: رأيت بخط الفقيه القاضى، الكاتب الرحال: أبى إسحاق إبراهيم
ابن الحاج النميرى - رحمه الله - فى تاريخ له بعد الكلام - ما نصه: ثم
ولى بعده ابنه المتوكل على الله أبو عنان - وهو الذى تميز بأمر المؤمنين من
بنى مرين - وحده، وتلقب المتوكل، وهو الجامع لكمالات الملوك والمنفرد بما
لم ينفرد به أحد منهم، وكان محبا فى العلم وأهله، يحصل المسائل العلمية،
ويطالع الكتب ليله أجمع، لم تهزم له قط راية، وخلد آثارا عظيمة، وبنى
بكل بلدة من بلاده - راوية لإطعام الطعام، ولم يكن له قصد إلا فى تحصيل
الأجور، واكتساب المحامد والمعالى، ورئى فى النوم فليل له: ما فعل الله
بك؟ فقال: غفر لى وأدخلنى الجنة، فليل له: بصدقاتك؟ قال: لا، رجع كل
ذلك إلى أربابه، وإنما نفعتى قراءة سورة الأنعام فى كل ليلة، ورآه بعضهم
أيضا فقال له: كيف حالك؟ فقال: أنا فى أتم النعم، وأكمل الخيرات بمحبتى
فى آل رسول الله - ﷺ - انتهى.

وقد يجمع بين هذه الأشياء بأن جميعها حصلت به المغفرة - وفضل الله
واسع، نسأله - سبحانه - أن يمن علينا بالرضوان، ويقينا فى الدارين مسالك
الذل والهوان، بجاء سيدنا محمد - ﷺ .

ومن فضائل الشفا ما وقفت عليه لبعض أعلام المتأخرين من أهل فاس
فى كتاب له يخاطب به السلطان الوطاسى. ونص محل الحاجة منه، ومن
فضائل الشفا، مما اتفق فى زمننا هذا - وهو ما أبرزه الله فى وجهتك
العجيبة، وإيا تلك السعيدة - فأصبحت النفوس منشرحة يوم الخصلة الماثورة،

وغنيمة المعمورة وذلك أن السيد الفقيه، المبارك الصالح، سيدى عبد العزيز اللمطى رحمه الله ورضى عنه رأى فى منامه فى عام عشرين من هذا القرن، كأن دخل القرويين، فوجد فى وسط الجامع جمعا من الناس - وهم يطلبون الله - قال: وإذا برجل داخل على الباب الشرقى المدرج وييده مصباح، فلما دخل واجتمع مع الناس، صار يقلع حصر المسجد قال: وإذا برجل داخل على الباب المذكور لوجهه نور، أضواء منه المسجد على برنس أبيض، فقال قائل للناس: هذا رسول الله - ﷺ - قد جاء فأتى الناس للقاءه، فسلموا عليه، فدخل حتى أتى الصف الذى فيه الكرسي الذى أنا أقرأ عليه الشفاء ثم جاء إلى ناحية الكرسي، حتى وصل إليه، قال سيدى عبد العزيز - رحمه الله - وأنا على الكرسي أقول: قال الشيخ الفقيه القاضى عياض، قال الرسول عليه - الصلاة والسلام - نعم، أحسن عياض، أحسن عياض، أحسن عياض! ثم جلس مع الناس فى المجلس، فلما فرغت من القراءة، شرعت فى الدعاء، ونصب الرسول - ﷺ - يديه، فلما فرغت - يقول سيدى عبد العزيز - أتيت رسول الله - ﷺ، وقبلت يديه، وجعل يده الكريمة على كتفى، ثم قال الرسول - ﷺ - لسيدى عبد العزيز: لم أنت تكره هذا القارئ؟ ألم تعلم أنه يحبني ويكثر من الصلاة على؟ قال: قلت: أنا تائب لله، قال: قل: أستغفر الله. فقلت: أستغفر الله، قال: قلت: يا رسول الله، أما ترى ما نحن فيه فى هذا الغرب من الغفلة؟ قال: قل لهذا المحب القارئ يقرأ الشفا فى مقام هذا الشيخ أربعين أربعاء، ولا بد من النصر بإثر ذلك، قلت: ومن هذا الشيخ؟ قال: أبو جيدة، ثم قال أشياء أخرى، قال سيدى عبد العزيز للقارئ: أحمد الله - تعالى - أن خصك الرسول - ﷺ - بقراءة أوصافه، فشرعت فى القراءة فى مقام الولي المذكور، فلما كان آخر أربعاء

منها - وأنت ياعين الزمان أعطاك الله النصر والتمكن والأمان بالناس على المعمورة، فكانت هزيمة الروم يوم الأحد، فكان بين التمام والنصر يوم الخميس والجمعة والسبت وصدق الله قول سيدى عبد العزيز - رحمه الله، وذلك من بركة الشفا المبارك، ويسعادة أيامك - والحمد لله - أسعدك الله ونفعنا وإياك بالشفا آمين - انتهى بحروفه.

وكتب بعضهم إلى الأمير على بن يوسف الوطاسى - يزعم أنه رآه يقرأ كتاب الشفا فى الجامع، فأول ذلك الوطاسى بالصدقة، لكونها شفاء.

قال صاحب «الروض الأنف»، فى مآثر على بن يوسف: وهذه مناسبة حسنة جدا - انتهى.

وحدث الشيخ أبو محمد بن الصائغ، أنه رأى القاضى عياضا فى النوم فى قصر قوائمه من ذهب، قال: فكان يسألنى عن مسألة، فأقول له: سيدى، ذكرت فيها فى كتاب الشفا كذا، فيقول لى: عندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد عليه، فبذلك نفعنى الله - أو نحو هذا.

قال الراوى عن ابن الصائغ المذكور: قال لى أبو محمد بن الصائغ المذكور: قد أخبرت بهذه الرؤيا ابن عمك أبا عبد الله، فقال لى: رأى إنسان - لا أدري أعن نفسه كنى أم عن غيره - أنه كان يرى الشيخ - رضى الله عنه - فى النوم، وإلى جانبه رجل طيب الرائحة، حسن الملبس، جميل الصورة كهيئة النبى - ﷺ، قال الراوى فكنت أقوم إلى الشيخ فأسلم عليه، فيقول لى: سلم على هذا، فأقول: ومن هو؟ فيقول لى: هذا الذى نفعنى الله به، أو نحو هذا - انتهى.

وقد قدمنا عن ابن سعد مثله، وكررت له لأن هذا أتم فائدة مع ما فيه من

تسمية الرائي وغير ذلك، على أن ابن سعد، جعلهما حكايتين مختلفتين، وهذا جعلهما - حكاية واحدة - حسبما لقيته على نسخة عتيقة من الشفا، عليها خط جماعة من الأعلام - والله أعلم.

ومن مناقب الإمام القاضي أبي الفضل عياض، الداخلة في أعمال بره، إقامته الحد على الفتح بن عبيد الله صاحب القلائد، وذلك أنه قصد مجلس قضائه - مخمرا، فتسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضي بذلك، فأمر به، فاستثبت في استنكاهه وحده حدا تاما. وقد حكى هذه المنقبة أبو عبد الله بن عياض، وعن نقلها صاحب المعيار، ونص ما تعلق به الغرض من كلامه في ذلك، وفي بعض تواريخ الأندلس، أن رجلا كان مع حمدين وابن رشد - حين كان يتعلمان العلم، فارتفع ابن حمدين حين بلغ القضاء والفتيا، وابن رشد كذلك، وخرج هذا الرجل متخلفا، فرفعته العامة أيام قضاء ابن حمدين، وذكروا له أنه شرب الخمر، فلما وقعت عينه عليه، قال له: يا شيخ، إنك أحرق؟ فقال الرجل: ما يعرفني غيرك، فأمر بإرساله من أيديهم، ثم أخذوه ثانية، وذكروا أنهم وجدوه - ومعه الخمر، فقال: ما شأنك أيها الشيخ؟ فقال له: يا أخى، فساد الزمان، ومخافة الإخوان، ومعاداة العوام، هذا شأنى: فقال لهم: أعرف هذا مجنوننا، أرسلوه، فقال بعضهم لبعض: إن هذا القاضي لا يمكنكم منه، اقطعوا مادته، وكان له حمام وعتبة أخرى يستغلها. فأتوا إليهما فهدموهما، وحملوا جميع أنقاضهما وتراهما، وبقيتا عرصتين كأنهما ما عمرا قط، وقطعوا مادته من قطع معاشه، وهذا من نحو العقو عن شارب الخمر، لقوله - عليه السلام - أقيلا ذوى الهيئات زلاتهم. أخرجه ابن أبى شيبة والنسائي.

وهو محمول على النذب، وقد يحتمل الوجوب، وهذا عكس ما اتفق للقاضى الفاضل، أبى الفضل عياض - رحمه الله - وهى من نوادره التى اضطره الشرع إليها، إقامته حد الخمر على الفتح بن خاقان، وذلك أنه قصد إلى مجلس قضائه مخمرا، فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فأمر فاستثبت فى استنكاهه، وحده حدا تاما.

قال ولد القاضى - محمد بن عياض: قال لى بعض أصحابنا، بعث أبوك إلى الفتح بن خاقان بعد أن أقام عليه الحد - صحبتى - ثمانية دنائير وعمامة.

وأخبرنى بعض أصحاب الفتح بن خاقان، أن الفتح قال له - بعد أن أقام عليه والدى الحد - عازمت على إسقاط اسم القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم بـ «قلائد العقيان»، قال: فقلت: لا تفعل وهى نصيحة، قال لى: وكيف ذلك؟ قال: فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تخلدها مؤرخة، فقال لى، وكيف؟ فقلت له: كل من نظر فى كتابك، يجدك قد ذكرت مثله ودونه فى العلم والصيت، فيسأل عن السبب، فيقال له، فيتوارث العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر، قال: فتبين له ذلك وعلم صحته - انتهى.

قلت: وقريب^(٢) مما وقع لابن حمدين، حكى عن القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى عيسى، قاضى الجماعة بقرطبة لعبد الرحمن الناصر، قال القاسم بن محمد كاتبه - أيام قضائه بالبيرة - ركبا مع القاضى فى موكب حافل من وجوه البلد، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض

(١) هذا المثلث هو الصواب، والذى فى المطبوع: «خاقان» بالفاء.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

الأزقة يتمايد سكرًا، فلما رأى القاضى هابه، وأراد الفرار، فخائته رجلاه، فاستند إلى الحائط وأطرق، فلما قرب منه القاضى، رفع رأسه إليه ثم أنشأ يقول:

ألا أيها القاضى الذى عم عدله فأضحى به فى العالمين فريدا
قرأت كتاب الله ألفين مرة فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئت جلدى فدونك منكبا صبورا على ريب الخطوب جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة تروح بها فى العالمين حميدا
وإن كنت تختار الحدود فإن لى لسانا على هجو الرجال حديدا
قال: فلما سمع القاضى شعره، وتبين له أدبه، أعرض عنه ومضى لشأنه - كأن لم يره - انتهى.

قال القاضى أبو الحسن^(١) النباهى، الظاهر من القاضى ابن أبى عيسى، أنه ذهب إلى الأخذ فى القضية التى تضمنتها آيات الفتى المتأدب بقول زفر: **إنَّ حدَّ الخمر لا يقوم بالإقرار مرة واحدة، حتى يقر الشارب على نفسه بالشرب مرتين. أو بقول الشافعى والكوفى^(٢): أنه لا يحد إلا من الشهادة على شربها أو قيئها، لا من الرائحة وتخيل السكر، أو ظن القاضى أن الفتى ممن لم يبلغ سن التكليف، أو قيل له عنه إنه كان مكرها، وحسب النازلة من باب درء الحدود بالشبهات - والله أعلم أى ذلك كان، فلا وجه لحكم فى إسقاط حد لغير عذر ولا تأويل، فإجماع المسلمين، منعقد على تحريم خمر**

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «ابن» وصوابه من المرقبة العليا.

(٢) فى المرقبة ص ٦١: «والكافى».

العنب النىء قليله وكثيره، وعلى وجوب الحد فيه، وإنما الخلاف فى التفضيل والقدر، فمذهب الجمهور من السلف والفقهاء، مالك وأبى حنيفة والثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق وغيرهم، أن حده ثمانون جلدة. وقال قوم - منهم أهل الظاهر: أن حده أربعون. قال الشافعى: بالأيدي والنعال، وأطراف الثياب، وعند مالك وغيره، الضرب فيه بسوط بين سوطين، وضرب بين ضربين، والحدود كلها سواء. وعند الزهرى والثورى وإسحاق وأحمد والشافعى، أن حد الخمر أضعف الحدود^(١).

قال عياض فى الإكمال، ورأى مالك وبعض أصحابنا فى المدمن، عليه التغليظ بالفضيحة والطواف والسجن، واختلفوا فى المريض الذى لا يرجى برؤه، فذهب مالك والكوفيين وجمهور العلماء، أنه لا يجرى فيه إلا ما يجرى فى الصحيح ويترك حتى يبرأ أو يموت. وقال الشافعى: يضرب بعشكول نخل، يصل جميع شماريخه إليه، أو ما يقوم مقامه. والمذهب إلزام السكران جميع أحكام الصحيح. لأنه أدخل ذلك على نفسه، وهو حقيقة مذهب الشافعى، وفرق بين الشارب مختاراً وبين المستكره^(٢).

وأكثر العلماء ذهب إلى أن الحدود كفارة، ومنهم من وقف واحتج بقوله تعالى: ﴿...لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَزَنٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة]، وفى حديث: ما عزز الثابت فى الصحيح، ما يدل على أن التوبة لا تسقط حد الزانى والسرقة والخمر، وإنما تنفع عند الله^(٣).

(١) المرقبة العليا ص ٦١.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

(٣) المرقبة العليا ص ٦٢.

وروى عن الشافعى، أن التوبة تسقط حد الخمر، وعلى كل تقدير، فمن الواجب على من وقع فى معصية وترتب بسببها قبله حق الله، وللناس من دم أو مال أو عرض أو انتهاك حرمة أن يبادر - أولا - إلى التوبة، ثم يرجع بعدها إلى الإقادة من نفسه للخلق والتحلل من التبعات بجهد على الوجوه المقررة فى الفقهيات. وأن يكثّر من ذلك مدة حياته من العمل الصالح، ومن الدعاء والبكاء، وبخصوص فيما يرجع إلى الدماء، فالمنقول عن مالك - وقد سئل عن كتب إليه وال فى قتل رجل فقتله، ثم أراد التنصل والتوبة، فعرض نفسه على أولياء المقتول وأخبرهم فقالوا: لسنّا بقاتليك، وإنا نخاف - إن قتلناك - عاقبة ذلك، وعرض عليهم الدية، فأبوا أن يقبلوها - فكان من جوابه - رضى الله عنه - أن قال: أحب إلى أن يؤدى دينه إليهم، وأن يعتق الرقاب ويتصدق، ويكرر الحج والغزو، وإن استطاع أن يلحق بالثغور ويكون فيها أبدا حتى يموت فهو أحب إلى^(١).

وفى الحديث: أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم. والمراد بذلك أهل المروءة والصلاح، ويبيّن ما روى أن رسول الله - ﷺ - قال: تجافوا عن عقوبة ذوى المروءة والصلاح، والمأمورون بالتجافى عن زلات ذوى الهيئات عند العلماء. هم الأئمة الذين إليهم إقامة العقوبات على ذوى الجنايات، والإقالة هى فيما عدا الحدود. والزلات التى أمر بالتجافى عنها، هى ما لم يخرج بها فاعلها عن أن يكون من ذوى المروءات والهيئات التى هى الصلاح، فأما من أتى ما يوجب حدا ما، إما قذف محصنة أو ما سوى ذلك من الأشياء التى توجب الحدود، فلا يجب التجافى عنه، لأنه قد خرج بذلك عن ذوى الهيئات

(١) المرقبة العليا ص ٦٢.

والصلاح . وصار من أهل الفسق، فوجب إقامة الحد عليه، ليكون ذلك ردعا له ولغيره، رزقنا الله الاستقامة، وسلك بنا مسالك السلامة^(١).

انتهى كلام النباهى . وذكرته بجملة تتميما للفائدة: وبالجمل، فما فعله القاضى عياض من إقامة الحد على الفتح، هو الحق الذى لا غبار عليه، ولا يتوجه الاعتذار إليه، وعكسه يحتاج إلى تأويل، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل .

والفتح المذكور، هو إمام البلاغة والكتابة، وصاحب التأليف الشهيرة التى منها «قلائد العقيان، فى محاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس، ومسرح التأنس، فى ملح أهل الأندلس» وغير ذلك .

وهو الفتح بن محمد بن عبيد الله، يكنى أبا نصر، ويعرف بابن خاقان، الكاتب الشهير القيسى، وهو من قرية تعرف بصخرة الوادى من قرى قلعة يحصب، خرج من موضعه وتجول فى البلاد، وبرع فى الكتابة والشعر، وامتدح الملوك، وشهر فى الأمصار، وكان مترسلا بليغا، آية من آيات الله فى البلاغة، لا يشق غباره، ولا يدرك شأوه عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعانى وثيقها، لعبوا بأطراف الكلام، معجزا فى باب الحلى والصفات، إلا أنه كان مقدورا عليه فى الرزق، محروما فى الدنيا على غالب عادة أهل الأدب، لا يمل من المعاقرة والقصف، حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، لذا قال ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى - إذ لم يذكره فى التكملة: لم يكن مرضيا، وحذفه أولى من إثباته^(٢) - انتهى .

(١) المرقبة العليا ص ٦٢ .

(٢) معجم أصحاب الصدفى، ص ٣٠٠ .

ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس، إلا ودخله - مسترفدا أميره، وواغلا على عليته، وكان كثير الأسفار، سريع التنقل، مرهب الشبا، قادرا على إظهار المثالب، وقد قال فى أبى بكر بن باجة - الشهير بابن الصائغ، آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس - على ما قال ابن الخطيب وغيره - ما هو مغلد فى كتابه «قلائد العقيان» إلى غابر الدهر، وبه ختم الكتاب المذكور.

وحدث بعض الأشياخ، أن سبب حقه عليه، ما كان من إزرائه به وتكذيبه إياه فى بعض المجالس، إذ جعل ذكر ما وصله به أمراء الأندلس، ووصف حليا - وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون - زعموا، فقال له ابن باجة - فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التى على شاربك؟ فثلبه أبو نصر، وعلى ذلك كله فهو نسيج وحده - غفر الله له. قال ابن خاتمة: لم يعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب.

قال الأستاذ فى الصلة - وكان معاصرا للكاتب المجيد، المحدث الجليل، أبى عبد الله بن أبى الخصال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبه. سمع - رحمه الله - من الأستاذ أبى على الصدفى، وأبى محمد ابن السيد البطلوسى، والقاضى أبى بكر بن العربى، وخططاه بذى الوزارتين، وحدث عن أبى الحسين بن سراج بحكايات، وروى عن أبى بكر بن القصيرة، وابن اللبانة، وأبى جعفر بن سعدون الكاتب، وأبى خالد بن بشتغير، وأبى الطيب ابن زرقون، وأبى عبد الله بن خلصة الكاتب، وأبى عبد الرحمن بن طاهر، وأبى محمد بن عبدون، وأبى الوليد بن حجاج - وغير واحد.

وروى عنه أبو عبد الله بن زرقون جميع تواليفه، وسمع كثيرا من نوادره وأخباره، وروى عنه أيضا، أبو بكر يحيى بن محمد الأركشى - فى آخرين يطول تعدادهم.

وألف - رحمه الله - كتباً جمة، ظهرت فيها براعته، وتبينت بلاغته وصناعته، منها: «قلائد العقيان، فى محاسن الأعيان» وكتاب «المطمح الكبير» وكتاب «المطمح الصغير» - كذا قال ابن خاتمة، وابن الخطيب، وقال ابن خلكان: «مطمح الأنفس ومسرح التأس، فى ملح أهل الأندلس» - وهو ثلاث نسخ: كبرى. ووسطى، وصغرى، وهو كتاب كثير الفوائد، وكلامه فيه يدل على غزارة مادته^(١) - انتهى.

ومن تأليفه: «راية المحاسن وغاية المحاسن» ومجموع فى ترسيله: وتوفى - رحمه الله - ذبيحاً بفندق ليب من حضرة مراکش، قيل: ليلة الأحد لثمان بقين من محرم، من عام تسع وعشرين وخمسمائة، حكاه ابن الخطيب، وقال ابن الأبار: ليلة عيد الفطر، من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، قال: قرأت ذلك بخط من يوثق به^(٢). وهذا الذى حكاه ابن الأبار هو المعتمد - عندي، وحكى ابن خلكان أنه توفى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وهو - عندي - خطأ، على أنه قد حكى القول الآخر، الذى هو سنة تسع وعشرين، وقد قيل إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين: على بن يوسف بن تاشفين، أخى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، الذى ألف برسمه «قلائد العقيان» وذكره فى خطبته، وقد أشار إلى هذا ابن خلكان^(٣) - والله أعلم.

وبالجملة، فقد ذبح - رحمه الله - فى هذا الفندق، وعبث به فى أحد بيوت الفندق المذكور، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من مقتله. ودفن بباب الدباغين من محروسة مراکش - تجاوز الله عنه.

(١) انظر وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٨.

(٢) المعجم ص ٣٠١.

(٣) وفيات الأعيان ٤٩٨/٣.

ونثره - رحمه الله - شهير، وكتابه فائقة، فمما ثبت له من غير المتعارف من السلطانيات. ظهير كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشرط، ولا خفاء بإدلاله وبراعته^(١)، وهو: هذا كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذي منة وغناء، أمر بإنقاذه فلان - أيده الله - لفلان بن فلان - صانه الله - ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها، ويصوح ما تكاثف من العدوان بجنباتها، - تنويها أحظاه بعلائه. وكساه رائق ملائه، لما علمه من سنائه، وتوسمه من غنائه، ورجاه من حسن منابه، وتحقيقه من طهارة ساجته وجنابه، وتيقن - أيده الله - أنه مستحق بما ولاه، مستقل بما تولاه، لا يعتريه الكسل، ولا تشيه عن المضاء الصوارم والأسل، ولم يكل الأمر منه إلى وكل، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل، وأمره أن يراقب الله - تعالى - في أوامره ونواهيه، ويعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه، وساله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾ [الانفطار]، فليتقدم لذلك بحزم لا يخمد توقده، وعزم لا ينفد تفقده، ونفس مع الخير ذاهبة، وعلى متن البر والتقوى راكبة، ويقدم للاحتراس من عرف اجتهاده، وعلم أرقه في البحث وسهاده، وحمدت أعماله، وأمن تفريطه وإهماله، ويضم إليهم من يحذو حذوهم، ويقفو شأوهم، بما لا يستراب بمناحيه، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه، وأن يذكي العيون على الجنة، وينفى عنها لذيذ السنة، ويفحص عن مكامنهم، حتى يغص بالروع نفس أمنهم، فلا يستقر بهم موضع، ولا يقر منهم مخب ولا موضع، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه، وبث السؤال في مواضع تصرفه ومواطنه، فإن لاحت شبهة أبداها الكشف والاستبراء، وتعداها البغي والافتراء، نكله بالعقوبة أشد نكال، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال، - بعد أن يبلغ إناءه. ويقف على طرف

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣١.

مداه، وحد له ألا يكشف بشرة إلا فى حد يتعين، وإن جاءه فاسق أن يتبين، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور، وأن يسلك السنن المحمود، وينزه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود، وإذا انتهت قصة مشكلة أخرها إلى غده، فهو على العقاب أقدر منه على رده، فقد يتبين فى وقت، ما لا يتبين فى وقت، والمعالجة بالعقوبة من المقت، وأن يتغمد هفوات ذوى الهيئات، وأن يستشعر الإشفاق، ويخلع التكبر فإنه من ملابس أهل النفاق، وليحسن لعباد الله اعتقاده، ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده، وأن يعاقب المجرم قدر زلته، ولا يعتز عند ذلته وليعلم أن الشيطان أغواه، وزين له مثواه، فيشفق من عثاره، وسوء آثاره، وليشكر الله على ما وهبه من العافية، وألبسه من ملابس الضافية، ويذكره - جل وعلا - فى جميع أحواله، ويفكر فى الحشر وأهواله، ويتذكر وعدا بنجز فيه ووعيدا، "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا" والأمير - أيده الله - ولى له - ما عدل وأقسط، وبرئ منه أن جار وقسط، فمن قرأه فليقف عند حده ورسمه، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه، ومن وافقه من شريف أو مشروف، وخالفه فى نهى عن منكر أو أمر بمعروف، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه ويال فعله. ﴿... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...﴾ (٤٣) [فاطر] - انتهى.

ومن مكاتباته الرائقة. قوله^(١): أطال الله بقاء الوزير الأجل، عتادى الأسرى. وزنادى الأورى. وأيامه أعياد. وللسعد فى زمانه انقياد: أما أنا - أدام الله عزه - فجوى عاتم، وأعيادى مآتم، وصبحى عشاء. ومالى إلا من الخطوب انتشاء، أبيت بين فؤاد خاق وطرف مسهد. نائى الملحة من مزار

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٦.

العود، حين لا أرى الروض المنور، ولا أحس سهيلا إذ لاح ثم تغور: وقد بعدت دار إلى حبيبة، ودنت منى حوادث بأدناها توذى الشبيبة، وأى عيش لمن لزم المفاز لا يريهما، حتى ألفه ريمها، قد رمته النوائب فما اتقى، وارتقت له الجوانح فى وعور المرتقى، يواصل النوى ولا يهجر سيرا، ولا يزجر فى الإراحة طيرا، قد هام بالوطن، هيام ابن طالب بالحوض والعطن، وحن إلى تلك البقاع، حنينه إلى أثلاث القاع، ولا سبيل أن يشعب صدع بينه شاعب، أو تكملة أحجار للدار وملاعب، وليس له إلى أمين يجنح، ولا يرى أمله ينسج، قد طوى البلاد وبسطها، وتطرف الأرض وتوسطها، ولم يلف مقيلا، ولا وجد مقيلا، إلى الله أشكو ما أقاسى وأقاصى، وبيده الأقدام والنواصى، ولقاؤه موعد كل موعد، وكل معمر سيدركه يوما حمام الموعد، وأنفذته - وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها، وأنكال سقيتها، وسفر لقيت منه نصبا، وكدر أعقبني وصبا، وإلى متى يعتزلنى السعد، ﴿... لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ...﴾ (٤) [الروم].

قال بعضهم: ومن أحسن ما رأيت له، قوله^(١): معاليك أشهر رسوما، وأعطر نسима، من أن يغرب شهاب مسعاها، أو يجذب لرائد مرعاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عمرا وإن استنرتك فإنما استنير قمرا: والأمير - أيده الله - أجل من أن اعتصم فى ملكه. وأنتظم فى سلكه، فإنه حسام بيد الملك طلاقته قرناده، وشهامته حده، وقضيب فى دوحة الشرف رطيب، بشره زهره، وبره ثمره، وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقبس، أو تكون كنار موسى بالواد المقدس، وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه، ويشف من أفقكم مصباحه فجرد - أيديك الله - صارم عزم لا يفل غروبه. واطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه - انتهى.

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٨.

المطمح ولنذكر بعض كلام الفتح فى المطمح، فإنى رأيت منه أوراقا بخزانة الكتب بتلمسان. ولفظه كلفظ القلائد، غير أنه زاد فى عدد الرجال، ووقفت فى مقيداتي على جملة من ذلك، وهأنا أثبتته - وإن كنت لم أر الكتاب المذكور، ولم أقف منه على غير هذه الأوراق، على أنى لست على يقين أن ذلك هو المطمح، وإنما غلب على ظنى بموافقة لفظ القلائد.

فمن ذلك، قوله عند ذكر المنصور بن أبى عامر - رحمه الله - بعد كلام ما نصه^(١): وتمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد البقاع، ووالى إلى بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم^(٢)، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار فى ذلك - أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجناب، فسار فى بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكنش فوالى فى إكرامه، وتناهى فى بره واهتمامه، فطالت مدته فلا متنزه إلا مر عليه متفرجا، ولا موضع إلا سار عليه معرجا، فحل فى ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينا هو يجول فى ساحتها، ويجيل العين فى مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر، قديمة - على طول الكسر، فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها، وزعمت أن لها عدة من السنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصغار ملبسة، وناشدته الله فى إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه فى ذلك أوكد

(١) نفح الطيب ١/٤٠٣.

(٢) هذا الصواب من النفح، والذي فى المطبوع: «أوراحهم».

مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليه حتى تم كلامه، فلما فرغ من قصته، قال له المنصور: هل وقفت هنالك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته، فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه. وبالمواثيق التي أخذت عليه، فعتبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ في الجهاد من فوره، وعرض [مَنْ] مِنَ الأجناد في نجد وغور، وأصبح غازيا على سرجه، مباهيا مروان يوم مرجه^(١)، حتى وافى ابن شاذبة في جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجنية، ويحلف له بأعظم آية، أنه ما جنى ذنبا، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا، فعنف أرساله وقال لهم: كان قد عاقدني ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصله النور، وقد بلغني بعد مقام فلانة المسلمة بتلك الكنيسة. ووالله لا أنتهى عن أرضه حتى أكتسحها، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقا لقوله، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطوله، فاستحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحق توحشها بأنسه، وغير من حالها، وعاد بسواكب نعماء على جذبها وإمجالها، وحملها إلى قومها، وكحلها بما كان شرد من نومها. انتهى.

ومن ذلك قوله في المنصور أيضا ما نصه^(٢): فرد نابه لى من تقدمه، وصرفه استخدمه، فإنه كان أمضاهم سنانا، وأذكاهم جنانا، وأتمهم جلالا،

(١) يعنى يوم مرج راهط.

(٢) نفح الطيب ٤٠٥/١.

وأظمهم استقلالاً ، فآل أمره إلى ما آل ، وأوهم العقول بذلك المآل ، فإنه كان آية الله في اتفائق سعيه ، وقربه من الملك بعد بعده ، بهر برفعة القدر ، واستظهر بالأناة وسعة الصدر ، وتحرك فلاح نجم الهدو ، وتملك فأخفق بأرضه كل عدو ، بعد خمول كابد منه غصصا وشرقا ، وتعذر مأمول طارد فيه سهرًا وفرقا ، حتى أنجز له الموعد ، وفر نحسه أمام تلك السعود ، فقام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة ، وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب أحسن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت له المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق ، وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادته حجة ، ولم تزخر لمكوره بها حجة ، لبست فيها البهاء والإشراق ، وتنفست عن مثل أنفاس العراق ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام ، غزا الروم شاتيا وصائفًا ، ومضى فيما يروم زاخرا وعائفًا ، فأوغل في تلك الشعاب ، وتغلغل حتى راع ليث الغاب ، ومشى تحت ألويته صيد القبائل ، واستجرت في ظلها بيض الظبا وسمر الذوابل ، وهو يقتضى الأرواح بغير سوم ، ويتنقى الصفاح على كل روم ، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد ، ويختطف منهم كل كوكب وقاد ، حتى استبد وانفرد ، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد ، وانتظمت له الأندلس بالعدوة ، واجتمعت له اجتماع قزيش في دار الندوة ، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة ، ولم يدع السمع لخليفته والإجابة ، ظاهرًا يخالفه الباطن ، واسما ينافره مواقع الحكم والمواطن ، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم ، واستكثر من أعدادهم ، حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا منهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا ، وملأها وحشا وذئابا ، وأعراها

من الأمان، برهة من الزمان، وعلى هذه الهنة فهو وابنه المظفر كان آخر سعد
الأندلس، وحد السرور بها والأنس، وغزواته فيها شائعة الأثر، رائعة
كالسيف ذى الأثر، وحسبه وافر، ونسبه معافر، ولذلك قال يفخر:

رمى^(١) بنفسى هول كل كريهة وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنان مشيع وأسمر خطى وأبيض باتر
وأنى لزجاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقىها أسود خوارد
فسدت بنفسى أهل كل سيادة وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة على ما بنى عبد الملك وعامر
رفعنا المعالى بالعوالى حديثه وأورثناها فى القديم معافر
وكانت أمه تسمية^(٢) فحاز الشرف بطرفيه، والتحف بمطرفيه، قال
القسطلى:

تلاقت عليه من تميم ويعرب شمس تلالا فى العلا وبدور
من الحميرين الذين أكفهم سحائب تهمل بالندى وبحور
وتصرف^(٣) قبل ولايته فى شتى الولايات، وجاء من التحدث بمنتهى
أمره بآيات، حتى صح زجره وجاء بصحبة فجره، تؤثر عنه فى ذلك أخبار،
فيها عجب واعتبار، وكان أدبيا محسنا، وعالما متفنا، فمن ذلك قوله - يمنى
نفسه بملك مصر والحجاز، ويستدعى صدور تلك الأعجاز:

(١) نفح الطيب ٤٠٦/١.

(٢) نفح الطيب ٤٠٦/١.

(٣) نفح الطيب ٤٠٦/١.

منع العين أن تذوق المناما حبها أن ترى الصفا والمقام^(١)
 لى ديون بالشرق عند أناس قد أحلوا بالمشعرين الحراما
 إن قضوا نالوا الأمانى وإلا جعلوا دونها رقابا وهاما
 عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشامأما
 وفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة^(٢)، أمر المنصور بن أبى عامر ببناء
 قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمرة وظهر
 استبداده، وكثر حساده، وخاف على نفسه فى الدخول إلى قصر السلطان،
 وخشى أن يقع فى أشطان، فتوثق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه فى أمسه،
 من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من
 اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رئاسته، ويتم به
 تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتياه وغلمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة
 بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة
 الأعظم، ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم، وشرع فى بنائها فى هذه السنة
 المؤرخة، وحشد إليها الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها
 بهاء يرد العيون كليلة، وتوسع فى اختطاطها، وتولع بانتشارها فى البسيطة
 وانبساطها، وبالع فى رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجاده وأغوارها،
 فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة، وصار بناؤها من الأنباء الغربية، وبنى
 معظمها فى عامين.

(١) نفح الطيب ٤٠٦/١.

(٢) نفح الطيب ٥٧٨/١.

وفى سنة^(١) سبعين وثلاثمائة، انتقل المنصور إليها، ونزلها بخاصته وعامته، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل فى داخلها الأهراء. وأطلق بساحتها الأرحاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه، وقواد وحجابه، فابتنوا بها كبار الدور، وجليات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمنازه المشيدة، وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو فى البناء حوله، حتى اتصلت أرباضه بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت فى بحبوحتها الإمارة، وأفرد الخليفة من كل شىء إلا من الاسم الخلافى، وصير ذلك هو الرسم العافى، ورتب فيها جلوس وزرائه، ورءوس أمرائه، وندب إليها كل ذى خطة بخطته، ونصب بيابها كرسى شرطته، وأجلس عليها واليا على رسم كرسى الخليفة، وفى صفة تلك الرتبة المنفية.

وكتب إلى الأقطار^(٢) بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عاج، فاقترضت لديها اللبانات والأوطار، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار، وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد، وانتظم بلبه أمانيه المراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد فى خبر أن لا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويسط فيه النهى والأمر،

(١) نفح الطيب ٥٧٩/١.

(٢) نفح الطيب ٥٧٩/١.

ويشرف منه على كل داخل، ويمنع ما يحذره من الدواخل، ورتب عليه الحراس والبوابين، والسمار والمتابين، يلازمون حراسة من فيه ليلا ونهارا، ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا، قد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملك قبيل أو دبير، وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، محجور الغناء، خفى الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحياب، لا يراه خاص ولا عام، ولا يخاف منه بأس ولا يرجى له إنعام، ولا يعهد منه إلا الاسم السلطاني في السكة والدعوة، وقد نسخه ولبس أبهته، وطمس بهجته، وأغنى الناس عنه، وأزال أطماعهم منه، وصيرهم لا يعرفونه، وأمرهم أن لا يذكروه، اشتد ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام في تشييد بنيتها، حتى كملت أحسن كمال، وجاءته في نهاية الجمال، نقاوة بناء وسعة فناء، واعتدال هواء رق أديمه، وصقالة جو اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان، وفيها يقول صاعد اللغوى^(١):

يا أيها الملك المنصور من يمن	والمبتنى نسبا غير الذي انتسبا
بغزوة في قلوب الشرك رائعة	بين المنايا تناغى السمر والقضبا
أما ترى العين تجرى فوق مرمرها	هوى فيجرى على أحفافها الطربا
أجريتها فطما الزاهى بجريتها	كما طموث فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة	مستلزمات تريك الدرع واليلبا
تحفها من فنون الأيك زاهرة	قد أورقت فضة إذ أورقت ذهبها

(١) نفح الطيب ١ / ٥٨٠.

بديعة الملك ما ينفك ناظرها يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلا ولو تعنت فيها نفسه طلبا
ودخل عليه ابن أبي الحباب^(١) في بعض قصوره من المنية، المعروفة
بالعامرية، والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت أنجاده وأغواره، وتصرف
فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا، فقال:

لا يوم كاليوم في أيامك الأول بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل طيب وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها بالسعد أن لا تحل الشمس بالحمل
وما زالت هذه المدينة^(٢) رائقة، والسعود بلبتها متناسقة، تراوحها
الفتوح وتغاديتها، وتجلب إليها منكسرة أعاديها، لا تزحف منها راية إلا إلى
فتح، ولا يصدر عنها تدبير إلا إلى نجاح، إلى أن حان يومها العصيب وقبض
لها من المكروه أوفر نصيب، فتولت فقيدة، وخلت من بهجتها كل عقيدة -
انتهى.

ولست أتيقن أن جميعه كلام الفتح، مع أنى وجدت فى بعض التواريخ
نسبته إليه، فأثبت جميعه لشدة مناسبة بعضه لبعض، على أنه لا يبعد جميعه
عن نفسه - والله أعلم، ثم تحققت أنه كلام الفتح فى المطمح. وقد تعلق
غرضى بذكر بعض كلام هذا المؤرخ فى شأن المنصور بن أبى عامر لما فيه من
ذكر جامع قرطبة، ونصه:

وكان المنصور، آية من آيات فاطرة، دهاء ومكرا وسياسة، عدا

(١) نفح الطيب ٥٨١/١.

(٢) نفح الطيب ٥٨١/١.

بالمصاحفة على الصقالبة، حتى قتلهم وأذلهم، ثم عدا بغالب الناصري على المصاحفة. حتى قتلهم وأبادهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلسى على غالب، حتى قتله، ثم عدا بنفسه على جعفر وقتله، ثم انفرد بنفسه، وصار ينادى صروف الدهر هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سلف له فيها، ومن أوضح الدلائل على سعده، أنه لم ينكب قط فى حرب شهداها، ولا توجهت عليه هزيمة، ولا انصرف عن موطن إلا قاهرا غالبا، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء. وواجه من الأمم، وإنها لخاصة، ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الإسلامية، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده، وتمكن جده، سعة جوده، وكثرة بذله، فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان، وأول من اتكأ على أرائك الملك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخفق، حط صاحبه المصحفى، وأثار له كامن حقه الخفى، حتى أصاره للهموم لبيسا، وفى غيابات السجن حبيسا، فكتب إليه يستعطفه.

هبنى أسأت فأين العفو والكرم إذ قاذنى نحوك الإذعان والندم^(١)
يا خير من مدت الأيدى إليه أما ترثى لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا
فما زاده ذلك إلا حنقا وحقدا، وما أفادته الأبيات إلا تضرما ووقدا، فراجعه بما أياسه، وأراه مرمسه، وأطبق عليه محبسه، وضيق تروحه من المحنة وتنفسه:

(١) نفح الطيب ٤٠٧/١.

الآن يا جاهلا زلت به القدم تبغى التكرم لما فاتك الكرم^(١)
أغريت بى ملكا لولا تثبته ما جاز لى عنده نطق ولا كلم
فياأس من العيش إذ قد صرت فى طبق إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
نفسى إذا سخطت ليست براضية ولو تشفع فيك العرب والعجم
وكان من أخبار المنصور^(٢) الداخلة فى أبواب البر والقربة، بنيان المسجد
الجامع، والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وذلك أنه لما زاد الناس
بقرطبة، وانجلب إليها قبائل البربر من العدو وإفريقية، وتناهى حالها فى
الجلالة، ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس،
فشرع المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تمكن الزيادة، لاتصال الجانب الغربى
بقصر الخلافة، فبدأ ابن أبى عامر هذه الزيادة على بلاطات، تمتد طولا من
أول المسجد إلى آخره، وقصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى
الإتقان، والوثاقة دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة،
ما عدا زيادة الحكم، وأول ما عمله ابن أبى عامر، تطيب نفوس أرباب
الدور، الذين اشترت منهم للهدم لهذه الزيادة، بإنصافهم من الثمن، وصنع
فى صحنه الجب العظيم قدره، الواسع فناؤه، وابن أبى عامر رتب إحراق
الشمع بالمسجد الجامع، زيادة للزيت، فتطابق بذلك النوران، وكان عدد
سوارى الجامع الحاملة لسماؤه، واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره، بين كبيرة
وصغيرة، ألف سارية وأربعمئة سارية وسبع عشرة سارية، وعدد ثريات
الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا، وعدد الكئوس سبعة آلاف

(١) نفح الطيب ٤٠٨/١، والبيان المغرب ٢/٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) نفح الطيب ٤٠٨/١.

كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأساً، وزنة مشاكى، وزنة الرصاص للكئوس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها، وزنة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل فى كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار^(١)، وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربيع أو نحوها، يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد، وما كان يختص برمضان المعظم، ثلاثة قناطير من الشمع، وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المَقْصَر^(٢) لإقامة الشمع المذكور، والكبيرة من الشمع، التى توقد بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً، يحترق بعضها بطول الشهر، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقربطية فى دولة ابن أبى عامر، ويتصرف فيه من أئمة ومقربين، وأمناء ومؤذنين، وسدنة وموقدين، وغيرهم من المتصرفين، مائة وتسعة وخمسين شخصاً، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أوراق من العنبر الأشهب، وثمان أوراق من العود الرطب الطيب.

ومن ذلك بنیان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم^(٣)، ابتداء بنائها المنصور سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وفرغ منها فى النصف من سنة تسع وسبعين، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة، وصارت صدراً فى مناقبه الجليلة، وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنها، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها. فحضر الشيخ عندهم، فساوموه فى القطعة، وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه ألا يخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهباً، كانت عنده أقصى الأمانة

(١) هذا الصواب من البيان المغرب، وفى المطبوع: «القناطر».

(٢) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «المقطن».

(٣) نفح الطيب ٤٠٨/١، والبيان المغرب ٢٨٨/٢.

وشرطها صحاحا، فاغتتم الأمان غفلته ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، وأنف من غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحا - كما قال: فقبض الشيخ مائة دينار ذهباً، فكاد أن يخرج من عقله، وأن يجن عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلاً في شكر المنصور، وصارت قصته خبراً سائراً.

ومن ذلك أيضاً^(١)، بناء قنطرة على نهر إستجة، وهو نهر شليل، وتجشم لها أعظم مئونة، وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة.

ومن ذلك^(٢)، أنه خط بيده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به.

ومن قوة رجائه^(٣)، أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته، ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه المناديل، في كل منزل من منازلهم، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويره في حنوطه، وكان يحملها حيثما سار مع أكفانه، توقعا لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، وكان يسأل الله - تعالى - أن يتوفاه في طريق الجهاد، فكان ذلك.

وكان متسماً^(٤) بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده، وإذا ذكر بالله ذكر، وإذا خوف من عقابه ازدجر، ولم يزل متنزهاً عن

(١) نفح الطيب ٤٠٩/١، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

(٢) نفح الطيب ٤٠٩/١، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

(٣) نفح الطيب ٤٠٩/١، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

(٤) نفح الطيب ٤٠٩/١، والبيان المغرب ٢/٢٨٩.

كل ما يستتر به الملوك سوى الخمر، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنين، وكان عدله في الخاصة العامة واطراحه للهوادة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته، أمرا مضروبيا به المثل.

ومن عدله^(١) أنه وقف عليه رجل من العامة يوما بمجلسه، فناداه: يا ناصر الحق، إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك - وأشار إلى الفتى صاحب الدركة، وكان له فضل محل عند ابن أبى عامر، ثم قال: وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت، فقال المنصور - أو عبد الرحمن ابن فطيس بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ - اذكر مظلمتك يا هذا، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما، قطعها من غير نصف، فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، ثم نظر إلى الصقلي - وهو قد ذهل عقله، فقال له: ادفع الدركة إلى فلان، وأنزل صاغرا، وساو خصمك فى مقامه، حتى يرفعك الحق أو يضعك، ففعل ومثل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به، خذ بيد هذا الفاسق الظالم. وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكرا، فقال له المنصور، قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك، وبقي انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى، فتناول الصقلي بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك^(٢)، قصة فتاه الكبير، المعروف بالبرقى مع التاجر المغربى، فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور - وهو

(١) نفح الطيب ٤٠٩/١، والبيان المغرب ٢٨٩/٢.

(٢) نفح الطيب ٤١٠/١، والبيان المغرب ٢٨٩/٢.

يومئذ أكبر خدام المنصور، وإليه أمر داره وحرمه، فدافع الحاكم، وظن أن جأه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع - متظلماً من الفتى، فوكل به في الوقت من حملة إلى الحاكم، فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك^(١) قصة محمد فصّاد المنصور، وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن زرب، ليحيف ظهر منه على امرأته، قدر أن سبيله من الخدمة، يحميه من العقوبة، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته، أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده، ثم يعيده إلى محبسه، ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، ففُطع عليه المنصور، وقال له: يا محمد إنه القاضي، وهو في عدله، ولو أخذني الحق ما أطق الامتناع منه، عد إلى محبسك، واعترف بالحق، فهو الذي يطلقك، فانكسر الحاجم، وزالت عنه ريح العناية، وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجته، وزاد القاضي شدة في أحكامه.

ومن دهائه^(٢)، قال ابن حيان: إنه كان جالساً في بعض الليالي، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فدعا بأحد الفرسان وقل له: انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك، سقه إلى، قال: فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريح والمطر - واقفاً على فرسه، إذا

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٠، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١١، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

وقف قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الخطب، فقال له الفارس: إلى أين تريد يا شيخ؟ فقال: وراء حطب، فقال الفارس فى نفسه: هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا، فما عسى أن يريد المنصور منه؟ قال: فتركته فسار عنى قليلا، ثم فكرت فى قول المنصور، وخفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ وقلت له: ارجع إلى مولانا المنصور فقال: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى، سألتك بالله أن تتركنى لطلب معيشتى؟ فقال له الفارس: لا أفعل، ثم قدم به على المنصور، ومثله بين يديه - وهو جالس لم ينم ليلته تلك، فقال المنصور للصقالبة: فتشوه، ففتش فلم يوجد عنده شىء، فقال: فتشوا برذعة حمارة، فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى. ليقبلوا ويضربوا فى إحدى النواحي المعلومة، فلما انبلج الصبح، أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم، وضربت رقبة الشيخ معهم.

ومن ذلك^(١)، قصة الجوهري التاجر، وذلك أن رجلا جوهريا من تجار المشرق، قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته، ودفع إلى التاجر الجوهري صرته، وكانت قطعة يمانية، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها - واليوم قائظ وعرقه منصب - دعت نفسه إلى التبرد فى النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فمرت حداة، فاختطفت الصرة تحسبها لحما، وصاعدت فى الأفق ذاهبة، فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين الناجر، فقامت قيامته، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسر الحرن فى

(١) نفح الطيب ٤١٢/١، والبيان المغرب ٢٩١/٢.

نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها، وحضر الدفع إلى التجار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر، فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هديت لى الناحية التى أخذ الطائر إليها؟ قال: مر مشرقا على سمت هذا الجبل الذى يلى قصر ك - يعنى الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال له: جئنى بمشيخة أهل الرملة - الساعة، فمضى وجاء بهم سريعا، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم - سريعا، وانتقل عن الإضاقه دون تدريج، فتناظروا فى ذلك، ثم قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزا عن شراء دابة، فاتباع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور، فاستنداه - والتاجر حاضر، وقال له: سبب ضاع منا وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال: يا مولاي، وضرب بيده إلى حجرة سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طربا، وكاد يطير فرحا، فقال له المنصور: صف لى حديثها، فقال: بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة، إذ سقطت أمامى، فأخذتها وراقنى منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصر ك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعتنى فأتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة، وقلت: أقل ما يكون فى كرم مولاي أن يسمح لى بها، فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرتك وانظرها، واصدقنى عن عددها، ففعل، وقال: وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء، سوى الدنانير التى ذكرها، وقد وهبتها له: فقال له المنصور: نحن أولى بذلك

منك، ولا ننقص عليك فرحك، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار، لكان ثوابه موفورا عليه، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير - عوضا عن دنانيره، وللجنان بعشرة دنانير - ثوبا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاء، قال: فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثن فى الأقطار عظيم ملكك، ولأبين^(١) أنك تملك طير عملك، كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك، ولا تؤذى جارك، فضحك المنصور وقال: اقصد فى قولك، يغفر الله لك، فعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره، وحيلته فى تفريج كربته - انتهى.

ثم حكى^(٢) هذا المؤرخ من أخبار المنصور جملة، ثم وصف غزوته لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيسة عندهم - بمنزلة الكعبة عندنا، فَبِهَا^(٣) يحلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، وسزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحوارى، أحد الاثنى عشر، وكان أخصهم بعيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه، إلى أن قال: وياقوب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفا ببيت المقدس، فجعل يستقرئ الأرضين، داعيا لمن فيها، حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته، فدفنوه بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها، ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها، وخشونة مكانها، وبعد شقتها، فخرج المنصور إليها من قرطبة -

(١) هذا المثلث من البيان المغرب، والذي فى المطبوع: «ولا بين».

(٢) نفح الطيب ٤١٣/١، والبيان المغرب ٢٩٤/٢.

(٣) هذا المثلث من البيان المغرب، والذي فى المطبوع: «فيها».

غازيا بالصائفة يوم السبت ليست بيقين من جمادى الأخيرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهى غزوته الثامنة والأربعون، ودخل على مدينة قورية فلما وصل إلى مدينة غَلِيسِيَّة. وافاه عدد عظيم من القوامس^(١)، المتمسكين بالطاعة فى رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا فى عسكر المسلمين، وركبوا فى المغاورة سيلهم، وقد كان المنصور تقدم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهزه برجاله البحريين، وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة، والعدد والأسلحة، استظهارا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بموضع يرتقال على نهر دويرة، فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك، ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند، فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض العدو، ثم نهض يريد شنت ياقُوب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار، وخلصان يمدها البحر الأخضر، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فلطارش وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ، شديد الوعر، لا مسلك فيه ولا طريق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعه شعبه، وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده وادى منية.

وانبسط^(٢) المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة، وأرضين أريضة، وانتهت مغيرتهم إلى دَيْرِ قَسْطَان، وبسيط بلنبو على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بلايّه وغنموه وعبروا - سباحة - إلى جزيرة من البحر المحيط،

(١) هذا الميث من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «القواميس».

(٢) نفع الطيب ٤١٥/١، والبيان المغرب ٢٩٥/٢.

لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي، فسيبوا من فيها عن لجأ إليها، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية، المتصل مراكز جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا - خليج لورقي في معبرين، أرشد الأدلاء إليهما، ثم نهر ايله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة، كثيرة الفائدة، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياغب صاحب القبر تلو مشهد قبره - عند النصارى في الفضل، يقصد نساكهم له من أقصى بلادهم، ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما، فغادره المسلمون قاعا، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياغب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحار المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها، وكنيستها، وعفوا آثارها، ووكل المنصور بقبر ياغب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعها بديعة، محكمة، فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس، وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط، وانتهت الجيوش إلى جزيرة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها للخليل مجال، ولا وراءها انتقال، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياغب، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بزاردون، ليستقره عائثا ومفسدا، حتى وقع فى عمل القواميس المعاهدين الذين فى عسكره، فأمر بالكف عنها، ومر مجتازا حتى خرج إلى حصن مليقة من افتتاحه، فأجاز هنالك القواميس بجسملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجالهم، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من مليقة، وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين، ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى،

واحدى وعشرين كساء من صوف البحر، وكسائين عنبريين، وأحد عشر سقلطونا، وخمس عشرة مريشات، وسبعة أنماط ديباج وثوين ديباج رومى، وفروى فنك، ووافى جميع العسكر - قرطبة غانما، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين، ولم يجد بشنت ياقب - إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أونس يعقوب، فأمر بالكف عنه.

ثم قال هذا المؤرخ^(١) - بعد كلام، وحدث شُعْلَة قال: قلت للمنصور ليلة طال فيها سهره: قد أفرط مولانا فى السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم - وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب، فقال لى: يا شعلة، الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومى، لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة.

وكان المنصور^(٢) يزرع فى كل سنة - ألف مدى من الشعير - قصيلا لدوابه الخاصة به، وكان إذا قدم من كل غزوة من غزواته، لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل، فيعلمه ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية فيعلمه بما وهى من أسواره ومبانيه^(٣)، وقصوره ودوره، وكان له دخالة فى كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد والطير والحيتان، وكان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء، وابتنى على طريق المباهاة والفخامة - مدينة الزاهرة، ذات القصور والمتنزهات المخترعة، كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة، ثم قال هذا المؤرخ - بعد كلام - وعند فراغه من بناء الزاهرة، غزا غزوة، أبعد فيها الإيغال، وغال

(١) نفح الطيب ٤١٦/١، والبيان المغرب ٢٩٨/٢.

(٢) نفح الطيب ٥٨٤/١، والبيان المغرب ٢٩٨/٢.

(٣) هذا المثبت لدى ابن عذارى فى البيان المغرب الذى ينقل عنه المصنف، والذى فى المطبوع: «وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره».

فيها من عظماء الروم من غال، وحل من أرضهم ما لم يطرق، وراع منهم ما لم يرع قط ولم يفرق، وصدر صدرا سما به على كل حسناء عقيلة، وجلّى به كل صفحة للحسن صقيلة، ودخل قرطبة دخولا لم يعهد، وشهد له فيها يوم لم يشهد، وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عأده، وحداه متجعه ورائده، وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، وله على ابن أبى عامر أيادى محكمة الأواصر، وكان كثيرا ما يتحفه، ويصله ويلطفه، فلما صدر المنصور من غزوته هذه نسي متاحفته، وأغفل ملاطفته، فكتب إليه ابن شهيد:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا يا لنفس تقيك صرف الرزايا^(١)

ورسول الإله أسهم فى الفى لمن لم يجد فيه المطايا

فاجعلنى - فديت - أشكر معرو فك وابعث به عذاب الثنايا

فبعث^(٢) إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار. كأنهن نجوم سوار، وكتب إليه:

قد بعثنا بها كشمس النهار فى ثلاث من المها أبكار

فاجتهد واتئد فإنك شيخ خفى الليل عن يياض النهار

صانك الله من كلالك فيها فمن العار كلة المسمار

فكتب إليه ابن شهيد^(٣):

قد فضضنا ختام ذاك السوار واصطبغنا من النجيع الجارى

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨٥، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٨٦، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٨٦، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.

ونعـمنا فى ظل أنعم ليل ولهـونا بالبدر ثم الدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء غضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا واتخذـه سيفا على الكفار
انتهى ما انتحيناـه من كلام هذا المؤرخ، وأظن أن بعضه من كلام الفتح
كقضية ابن شهيد هذه^(١)، فإنها لا تبعد عن مساقه - والله أعلم.

وأخبار المنصور بن أبى عامر، طبقت الأقطار، وطارت كل مطار،
وتعدادها تضيق عنه الأسفار، خصوصا ما له على الكفار، ولذا كتب على
قبره^(٢):

آثاره تنبـيك عن أخبارـه حتى كأنك بالعيان تراه
تالله ما يأتى الزمان بمثله أبدا ولا يحمى الثغور سواه

وقد حكى صاحب «الزهرات المنشورة فى الأخبار الماثورة» كثيرا من
محاسن المنصور بن أبى عامر، فمن ذلك قوله فى الزهرة الثامنة والعشرين ما
نصه:

حكى أبو العلى صاعد اللغوى قال: جمعت خرق الأكياس، والصرر
التي قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبى عامر، فقطعت لكافور الأسود
غلامى منها قميصا كالمـرقعة، وبكرت به معى إلى قصر المنصور، فاحتلت فى
تنشيطه حتى طابت نفسه، فقلت: يا مولانا، لعبـدك حاجة، فقال: اذكرها،
قلت: وصول غلامى كافور إلى هنا، فقال: وعلى هذه الحال؟! فقلت: لا
أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك، فقال: أدخلوه، فمثل قائما بين يديه فى
مرقعته، وهو كالنخلة إشرافا، فقال: قد حضر - وإنه لباذئ الهيئة، فمالك

(١) الأخبار التى سيقـت فى الصفحات السابقة موجودة بنصها لدى ابن عذارى فى البيان
المغرب كما أشرت إلى ذلك.

(٢) البيان المغرب ٢/ ٣٠١.

أضعته؟ فقلت: يا مولانا، هناك الفائدة، أعلم يا مولاي أنك وهبت لى اليوم ملء جلد كافور مالا، فتهلل وقال: لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر، وأمر لى بمال واسع وكسوة، وكسا كافورا أحسن كسوة.

وفى التاسعة والعشرين ما نصه: تقدم إلى الحاجب المنصور بن أبى عامر وانزمار ابن أبى بكر البرزالى. أحد جند المغاربة - وقد جلس للعرض والتميز - والميدان غاص بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى: يا مولاي، ما لى ولك، أسكنى، فإنى فى الفحص، فقال: وما ذلك يا وانزمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتنى - والله - نعمتك، أعطنى من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها، وأنا بربرى مجوع. حديث العهد بالبؤس، أترى لى أن أبعد القمح عنى، ليس ذاك من رأى، فتطلق المنصور، وقال: لله درك من فذ عيى، لعلك فى شكر النعمة، أبلغ عندنا، وآخذ بقلوبنا، من كلام كل أشدق متزید، وبلغ مفتن، وأقبل على من حوله من أهل الأندلس، فقال: يا أصحابنا، كذا فلتشكروا الأيادى، وتستديموا النعم، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، والتشكى المبرح، وأمر له بأفضل المنازل الخالية^(١).

وفى الموفية ثلاثين ما نصه، أصبح المنصور بن أبى عامر صبيحة أحد، وكان يوم راحة الخدمة الذين أعفوا فيه عن قصد الخدمة فى مطر وابل غب أيام مثله، فقال: هذا يوم لا عهد بمثله، ولا حيلة للمواطنين لقصدنا فى مكابדתه، فليت شعرى، هل شد أحد منهم عن التقدير، فأغرب فى البكور، أخرج وتأمل - يقوله - لحاجبه - فخرج وعاد إليه - ضاحكا وقال: يا

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٤١٧.

مولاي، على الباب ثلاثة رهط من البرابرة، أبو الناس بن صالح، واثنان معه، وهم بحال من البلل، إنما توصف بالمشاهدة، فقال: أوصلهم إلى وعجل، فدخلوا عليه في حال الملاح بللا ونداوة، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم وقال: خبروني كيف جئتم، وعلى أي حال وصلتكم - وقد استكان كل ذي روح في كنه، ولاذ كل طائر بوكره، فقال له أبو الناس بكلامه: يا مولانا، ليس كل التجار قعد عن سوقه، وإذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس، فنحن أعذر بإدراكها بالبدر، ومن غير رءوس أموال، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون في قصدها ثيابهم، ونحن نأتيك على خيلك، ونذيل على صهواتها ملابسك، ونجعل الفضل في قصدك مضمونا، إذا جعله أولئك طمعا ورجاء، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذه؟ فضحك محمد بن أبي عامر، ودعا بالكسي والصلات، فرفعت لهم وانصرفوا - مسرورين بغدوتهم^(١).

وفي الزهرة الرابعة والأربعين ما نصه: كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب قد رثت حاله في الطلب، فتعلق بكتاب العمل، واختلف إلى الخزانة مدة حتى قلد بعض الأعمال، فاستهلك كثيرا من المال، فلما ضم إلى الحساب، أبرز عليه ثلاث آلاف دينار، فرجع خبره إلى المنصور، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه. ولزم الإقرار بما برز عليه، قال له: يا فاسق، ما الذي جرأك على مال السلطان تنتهبه؟ قال قضاء غلب الرأي وفقر أفسد الأمانة، قال: والله لأجعلنك نكالا لغيرك، ليحضر كبل وحداد، فأحضرا، فكبّل الفتى وقال: احمّلوه إلى السجن، وأمر الضاغط بامتحانه، والشدة عليه، فلما قام، أنشأ يقول:

(١) نفح الطيب ٤١٧/١.

أواه أواه وكــــم ذا أرى أكثر من تذكـار أواه
ما لامرئ حول ولا قوة الحـول والقـوة لله
فقال المنصور: ردوه، فلما رد، قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت:
فقال: حلوا عنه كبله، فلما حل عنه، أنشأ يقول:

أما ترى عفو أبى عامر لا بد أن تتبـعه - منه
كذلك الله إذا عفا عن عبده أدخله - الجنة
قال: فأمر بإطلاقه، وسوغه ذلك المال، وأبرأه من التبعة فيه^(١).

وفى الخامسة والأربعين ما نصه: عرض على المنصور بن أبى عامر اسم
أحد خدامه فى جملة من طال سجنه، وكان شديد الحقد عليه، فوقع على
اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه، حتى يلحق بأمه الهاوية، وعرف الرجل
بتوقيعه، فاغتم وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة، وأرق المنصور بن أبى عامر
من أثر ذلك، واستدعى النوم، فلم يقدر عليه، وكان يأتية عند تنويمه آت
كريحه الشخص عنيف الأخذ، يأمره بإطلاق الرجل، ويتوعده على حبسه،
فاستدفع شأنه مرارا، إلى أن علم أنه نذير من ربه، فانقاد لأمره، ودعا
بالدواة فى مرقده، فكتب بإطلاقه، وقال فى كتابه: هذا طليق الله - على
رغم أنف ابن أبى عامر، وتحدث الناس زمانا بما كان منه^(٢).

وفى الثامنة والأربعين ما نصه: انتهت هيبة المنصور بن أبى عامر
وضبطه للجند، واستخدام ذكور الرجال، وقوام الملك - إلى غاية لم يصلها

(١) نفح الطيب ٤١٨/١.

(٢) نفح الطيب ٤١٩/١.

ملك قبله ، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلاً فى الإطراق ، حتى إن الخيل لتمثل إطراق فرسانها ، فلا تكثر الصهيل والحمحمة ، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد ، بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله ، فقال : على بشاهر السيف ، فمثل بين يديه لوقته ، فقال : ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه إل عن إذن؟ فقال : إنى أشرت به على صاحبى - مغمداً ، فذلق من غمده ، فقال : إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ، وأمر به فضربت عنقه بسيفه ، وطيف برأسه ، ونودى بذنبه (١) .

انتهى ما تعلق به الغرض من أخبار المنصور ، وأنشدنى بعض الكتاب من أهل قسطنطينة - المحروسة بالله - لبعض الأقدمين قوله :

حدثنا عرف نسيم الصببا	عن بان نجد عن ربي حاجر
عن سميرات الحى عن عالج	عن سر ذلك الميسم العاطر
قالوا سمعنا طائرا بالحمى	ينشد بيت ابن أبى عامر
ما أقبح السلوان من عاشق	وما ألد الوصل من هاجر!

وأظنه ابن أبى عامر الذكور ، وأنه قال ذلك البيت ، فوطأ له هذا الشاعر بالثلاثة الأبيات - والله أعلم .

ثم بعد مدة رأيت فى عدة مصنفات رواية البيت هكذا :

(ينشد بيتا لبنى عامر) - فالله أعلم .

(١) نفح الطيب ١/٤١٩ .

ورأيت فى كتاب الزهراء المثورة المذكورة آنفاً، من غير أخبار ابن أبى عامر . . فى الزهرة الرابعة والستين ما نصه: لما قبض على الوزير أبى جعفر ابن عبد الملك بن سعيد العنسى، وثقف بمالقة، دخل إليه ابن عمه، ووصل إلى الاجتماع به - ريثما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن فى أمره، قال: فدمعت عيناي حين رأيته مكبولا، فقال: أعلى تبكى - بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذتها: فأكلت صدور الدجاج، وشربت فى الزجاج، ولبست الديباج، وتمتعت بالسراى والأزواج، واستعملت من الشمع السراج الوهاج، وركبت كل هملاج، وهأنا فى يد الحجاج، منتظر محنة الحلّاج، قادم على غافر لا يحتاج، إلى اعتذار ولا احتجاج، قال: فقلت: أفلا يؤسف على من ينطق بمثل هذا الكلام، ثم يفقد، وقمت عنه فكان آخر العهد به. انتهى.

ولنعد إلى ما كنا فيه من سرد بعض كلام الفتح فنقول: قال فى الأوراق التى رأيت من المطمح - بعد ترجمة المعتصم بن صمادح، وتحليته إياه بعين ماله فى القلائد، ما نصه^(١): ابنه عز الدولة أبو مروان عبد الله - رحمه الله، فتى الراح، المعافر لدنانها، المهتصر لأغصان الفتوة وأفنانها، المهجر لفلاة الأطباء والآرام، المشهر فى باب الصبابة والغرام^(٢)، نشأ فى حجر أبيه نديم قهوة، ومديم صبوة، وخديم شهوة، لا يريم كأسا، ولا يروم إلا اقتضى انتكاسا، ما شهد قتلا ولا قتالا، ولا تقلد صارما إلا مختالا، قد أمن منه جنان الجبان، وعدت له غصون البان، وما زال مرتضعا لأخلاف البطالة، مقتطعا ما شاء من إطالة، متوغلا فى شعاب الفتاك، متغلغلا فى طريق الانتهاك - إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين - سفيرا عندما بدت له وجوه

(١) نفح الطيب ٧ / ٤٠ .

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذي فى المطبوع: «الغرم».

الفتنة تسفر، ومعاهد الهدنة تقفر، مع أكامل أصحابهم نقصانه، وذوى أديان جعلهم خلصانه، يسمعون بواذر بذاذته، وينظرون مناكر لذاذته، فآلت سفرته إلى الاعتقال، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال، فجاء كالمهر لا يعرف لجاما، وصار حبيس قوم لا يألونه استعجاما، وحين شالت نعامته، وسالت عليه ظلامته، كتب إلى أبيه:

أبعد السنا والمعالي خمول	ويعد ركوب المذاكى كبول
ومن بعد ما كنت حرا عزيزا	أنا اليوم عبد أسير ذليل
حللت رسولا بغرناطة	فحل بها في خطب جليل
وثقت إذ جيئتها مرسلا	وقلبي كان يعز الرسول
فقدت المرية أكرم بها	فما للوصل إليها سبيل ^(١)

فراجعه أبوه بقطعة، منها:

عزيز على ونوحى دليل	على ما أقاسى ودمعى يسيل
وقطعت البيض أغمادها	وشقت بنود وناحت طبول
لئن كنت يعقوب فى حزنه	ويوسف أنت فصير جميل ^(٢)

ولم يزل يتحيل فى تخلصه، وأخذه من يد مقتنصه، فسرق - وحراسه منه بمكان السلك من النحر، وطرق به على ثبج البحر، فوافى المرية، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية، فهنىء المعتصم بخلاصه، وبقي مستقرا

(١) نفح الطيب ٤١/٧.

(٢) نفح الطيب ٤١/٧.

بعراصه، إلى أن أخلوها، ومضوا لمطية ما نووها، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذمة كانت بينهما وأواصر، وأقام معه سمير لهوه - وأمير سهوه - إلى أن انقضى أمده، وطواه سروره لأكمده، فلم ير إلا خالعا لعذاره، طالعا من ثياب اغتراره، غير مكترث باتضاعه، ولا منحرف عن ارتشاف الغي وارتضاعه، وبدا منه في هذه الحال ندى كثر به السحاب، وظاهر بسببه الأصحاب، وتخدم الأوطار، وتقدم لذوى الرتب فيها والأخطار، تقدما حسن من ذكره^(١)، وأولعا الألسن بشكره، فارتفع عنه الكدح، وشفع له في الذم ذلك المدح، وكان نظمه بديع الوصف، رفيع الرصف، وقد أثبت له ما يشهد بإجاده وإحسانه، شهادة الروض بجود نيسانه^(٢).

أخبرني^(٣) ابن القطان أنه سائر الأمير يحيى بن أبى بكر إلى طليطلة في جيوش فاضت سيلا، وخاضت المطايا قتاما ليلا، وكان ملكا لم يعقد على مثله لواء، ولم يحتو على شبهه حواء، جمال محيا، وكمال عليا، وحسن شيم، وبعد همم، أغنى العفاة، وأحيا الرفاة، وألغى الأجواد، وأنسى كعب ابن مامة وابن أبى داؤد، فلما شارف طليطلة وكشفها، واشتف بلالتها وارتشفها، وضرب بكنفها مضاربه، وأجال بساحتها رنجه وأعاربه، سقط أحد ألويته عن يد حامله، وانكسر عند عامله، فطائفة تفاءلت، وطائفة تطيرت، وفرقة ابتهجت، وأخرى تغيرت، فقال:

(١) فى المطبوع: «والأخطار، حسنا من ذكره، والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٤١/٧.

(٣) نفح الطيب ٤٢/٧.

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يخشى عليك بها وأن تتأولا
لكن تحقق أنه يندق فى نحر العدو لدى الوغى فتعجلا^(١)
وأخبرنى^(٢) أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبانة، كتب إليه - والخلع قد
نضا لبوسه، وقصر بوسه، وكدر صفاءه، وغدر وفاءه، وطوى ميدان جوده،
وأذوى أفنان وجوده:

يا ذا الذى هز أمداحى بحيلته وعزه أن يهز المجد والكرما
واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سلما
فدعته دواعى الندى، وأولعته بالجد فى ذلك المدى، فتحيل فى بر
طبعه، وكتب معه:

المجد يخجل من نقد يك فى زمن ثناه عن واجب البر الذى علما
فدونك النزر من مصف مودته حتى يوفيك أيام المنى سلما^(٣)
ابنه الثانى رفيع الدولة أبو يحيى بن المعتصم^(٤) من بيت إمارة. وإلى
السعد طوافه بها واعتماره، عمرت أنديته، ونشرت به رايات العز وألويته،
إلى أن خوى كوكبهم، وهوى مرقبهم، ففارقوا أيادى سبأ، وفرقوا من وقع
الأسنة والطبى، وفارقوا أرضا كأرض غسان، ووافقوا أياما كيوم أهل اليمامة
مع حسان، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق، وأمهم الناس
من كل مكان سحيق، وانتجعوا انتجاع الأتواء، واستطعموا فى المحل اللأواء،
وصالوا بالدهر وسطوا، وبين النهى والأمر فيه خطوا، ورفيع الدولة هذا فخر

(١) نفح الطيب ٤٢/٧.

(٢) نفح الطيب ٤٢/٧.

(٣) نفح الطيب ٤٢/٧.

(٤) نفح الطيب ٤٢/٧.

ذلك الصباح، وضوء ذلك المصباح، وغصن تلك الدوحة، ونسيم تلك
النفحة، لم يتمهن - والدهر قد بذله، ولا ترك الانتصار - والأمر قد خذله،
فالتحف بالصون وارتدى، وراح على الانقباض واغتدى، فما تلقاه إلا سالكا
جددا، ولا تراه إلا لابسا سؤدا، وله أدب كالروض المجود - إذا أزهري،
ونظم كزهر التهائم والنجود، بل كالصبح إذا أسفر، أوقفه على النسب
وصرفه إلى المحبوبة والحبيب، فمن ذلك قوله (١):

مالي وللبدن لم يسمع بزورته لعله ترك الإجمال أو جهرا
إن كان ذاك لذنوب ما شعرت به فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا
وقوله أيضا (٢):

يا عابد الرحمن كم ليلة أرقنتني وجدا ولم تشعر
إذ كنت كالغصن ثنته الصبا وصحن ذاك الخد لم يشعر
وقوله أيضا (٣):

وأهيف لا يلوى على عتب عاتب ويقضى علينا بالظنون الكواذب
يحكم فينا أمره فنطيعه ونحسب منه الحكم ضربة لارب
وقوله أيضا (٤):

وعلقته حلو الشمائل ما جئنا خنث الكلام مرنح الأعطاف
ما زلت أنصفه وأوجب حقه لكنه يأبى من الإنصاف

(١) نفح الطيب ٤٣/٧.

(٢) نفح الطيب ٤٤/٧.

(٣) نفح الطيب ٤٤/٧.

(٤) نفح الطيب ٤٤/٧.

وقوله أيضا:

حبيب متى ينأى عن القلب شخصه يكاد فؤادى أن يطير من البين
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا كأن على قلبى تمائم من عين^(١)
وقوله أيضا:

أفدى أبا عمرو وإن كان جانبا على ذنوبا لا تعدد بالعتب
فما كان ذاك الود إلا كبارق أضواء لعينى ثم أظلم للقلب^(٢)
وله - وقد بلغه موتى، وتحقق عنده فوتى:

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطرس
ما كنت أحسب يوما قبل ميته أن البلاغة والآداب تختلس^(٣)
واستأذن ليلة على أحد الأمراء - وأنا عنده فى أسنى موضع، وأبهى
مطلع، وجوانب جنده بين يدي محتله، وسحائب رفده على منهله، وكان
أجمل من مقل، وأكمل من من المهد إلى سرير الملك قد نقل^(٤).

انتهى ما ألفيته فى المطمح من هذا الموضع، وفى موضع آخر ما نصه:
أبو عامر ابن عقال، كان له بينى قاسم تعلق، وفى سماء دولتهم تألق،
فلما خوت نجومهم، وعفت رسومهم، انحط عن ذلك الخصوص، وسقط
سقوط الطائر المقصوص، وتصرف بين وجود وعدم، وتحرف قاعدا حيناً

(١) نفح الطيب ٤٤ / ٧ .

(٢) نفح الطيب ٤٤ / ٧ .

(٣) نفح الطيب ٤٥ / ٧ .

(٤) نفح الطيب ٤٥ / ٧ .

وحينا على قدم، وفي خلال حاله، وأثناء انتحاله، لم يدع حظه من الحبيب، ولا ثنى لحظة عن الغزال الريب، ولم يزل يطير ويقع، والدهر يخرق حاله ويرقع، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين - رحمه الله - أعلى ربوة، وزاده أبهى حظوة: فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشاء، وترك الدهر قلق الحشا، وتسئم منزلة لا يتسمنها إلا من تظهر من درنه، وجمع إحسانه في ميدان حرنه، والحظوظ أقسام لا تسام، والدنيا إنارة وإعتام^(١).

ولو لم يعمل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام^(٢)
وقد أثبت عنه بعض ما ألفيته، والذي أخذته مباين لما أبقيته، فمن ذلك:

يا ويح أجسام الأنا	م لما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بال غذا	ء وسقمها ذاك غذا
وتنال أيام السلا	مة بالحياة تلذا
فإذا انقضى زمن الصبا	ورمى المشيب فأنفا
وجد السقام إلى المفا	صل والجوانح منفا
ويقول مهما يعط شي	ئا ناولوني غير ذا ^(٣)

(١) نفح الطيب ٤٦/٧.

(٢) نفح الطيب ٤٧/٧.

(٣) نفح الطيب ٤٧/٧.

وحذا في هذه القصيدة حذو الصابي في قوله:

وجع المفاصل وهو أي سرما لقيت من الأذى

ردى الذي استحسنته والناس من حظى كذا

والعمر مثل الكاس ير سب في أواخرها القذى^(١)

وله يتعذر من زيارة اعتمدها، ومواصلة اعتقدها: فعاقته حوادث لوته.

وعدته عن ذلك وثنته:

بينما كنت راجيا للقاءه والتشفي بالبشر من تلقائه

وترقيت في سماء نزاعى قمر الأنس طالعا من سمائه

إذ دهاني اعتراض خطب ثنائي عن غمام يشفي الغليل بمائه

فتدهلت وانزويت حياء منه والعذر واضح لسناؤه^(٢)

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر

سنة خمس وخمسمائة - وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جواره - أيده

الله - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه، وسهل

بعد أن رأى الشامخ من هضابه، وصار حيه ميتا، وهذره صمتا، وجباله لا

ترى فيها عوجا ولا أمتا، وضعف تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطئه،

فعبر آمنا من لهواته، متملكا لصهواته، على جواد يقطع الخرق سبحا، ويكاد

يسبق البرق لمحا، لم يحمل لجاما ولا سراجا، ولا عهد غير اللجة الخضراء

مرجبا، عنانه في رجله، وهذب العين يحكى بعض شكله، فله هو من

(١) نفح الطيب ٤٧/٧.

(٢) نفح الطيب ٤٨/٧.

جواد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهواء ولا يرهبه، ويركض الماء ولا يشربه^(١).

أبو القاسم^(٢) المنيشى أحد أنشاء حضرة إشبيلية المقلين، الناهضين بأعباء الضرائر المستقلين، لم يعيشوا لكل ضوء ويتتبع مصاب كل نوء، فيوما يخصب، ويوما يجذب، وآونة يفرح. وأخرى ينتدب - إلى أن صدقت مخائله، فرمقت بخوته ونخائله، وأتى من العجب، بمنسدل الحجب، ومن الأشر، لم يأت من بشر، وما تصرف إلا فى أنذل الأعمال، ولا تعرف إلى بأخون العمال، لم يفرع ربوة ظهور، ولم يقرع باب رجل مشهور، وله أدب ولسن، ومذهب فيهما يستحسن، لكنه نكب عن المقطع الجزل، وذهب مذهب الهزل، إلا فى النادر فربما جد، ثم أخلق منه ما استجد، وعاد إلى ديدنه، عودة أبى عباد إلى واواته ومدنه، وأخذ فى ذلك الغرض وليس شرط كتابى بذاءه، ولا أن يقف حذاءه، وقد أثبت له ما هو عندى نافق، ولغرض كتابى موافق، فمن ذلك قوله^(٣):

يا روضة باتت الأنداء تخدمها	أتى النسيم وهذا أول السحر
إن كان قدك غصنا فالثراء به	هى الكمائم قد زرت على الزهر
إربأ بخديك عن ورد وعن زهر	وأغن بقرطيك عن شمس وعن قمر
يا قاتل الله لحظى كم شقيت به	من حيث كان نعيم الناس بالنظر

(١) نفح الطيب ٤٨ / ٧.

(٢) نفح الطيب ٥٣ / ٧.

(٣) نفح الطيب ٥٤ / ٧.

وله من رثاء فى والدتى^(١) - رحمة الله عليها:

يا ناصحى غير مفتات ولى شجن
لا أستجيب - ولو ناديت من كذب
إن كان رأيك فى برى وتكرمتى
لا ترضى لى غير شجو لا أفارقه
ومنها^(٢):

ياذا الوزارة من مثنى وواحدة
لله منك أبا نصر أخو جلد
أستودع الله نورا ضمه كفن
قضت وليت شبابى كان موضعها
مضت ولما يقم من دونها أحد
وله يصف زرزورا^(٣):

أمنبر ذاك أم قضيبي
يختال فى بردتى شباب
كأنما ضخمت عليه
أخرس لكنه فسصيح
بفرعه مصقع خطيب
لم يتوضح بها مشيب
أبراده مسكة وطيب
أبله لكنه لبسب

(١) نفح الطيب ٥٤/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٤/٧.

(٣) نفح الطيب ٥٥/٧.

جسهم على أنه وسيم صعب على أنه أريب

أبو الحسن البرقي^(١) بلنسى الدار، نفيسى المقدار، ما سمعت له بشرف، ولا أعلمت له بسلف، ولا اطلعت منه على غير سرف، ورد إشبيلية سنة تسع وتسعين، واتصل بابن زهر، فناهيك من حظ فى أكتافه جال، ومن لحظ فيما أرادته أجال، ومن أمل استوفر، ومن وجه جاه له أسفر، سلك به ساحة الرغائب، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب، وقال فما نبذت مقالته، وأقال فما قيدت إقالته، وكان حلو المجالسة، مجلو المؤانسة، ذا شنب وافر، ومذهب فى المساهمة سافر، إلا أنه كان كلفا بالفتيان، معنى بهم فى كل الأحيان، ونيف على السبعين - وهو برداء الصبوة مرتد، وبعترها مقتد، مع أدب زهرته ترف، وكأنه بحر والألباب منه تغترف، وقد أبت له بعض ما وجدت له فى الغلمان، وأنشدت له فى ذلك الزمان، فمن ذلك قوله^(٢):

إن ذكرت العقيق هاجك شوق رب شوق يهيجه الادكار
يا خليلي حدثانى عن الركـبـ بـ سحيرا أنجدوا أم أغاروا
شغلونا عن الوداع وولوا ما عليهم لو ودعوا ثم ساروا
أنا أهواهم على كل حال عدلوا فى هواهم أم جاروا

وعلق بإشبيلية فتى يعرف بابن المكر، ومات من حبه طريحا بين أيدي الوسائس والفكر، لا يمشى إلا صببا، ولا يفشى إلا غراما وحببا، وما زال يقاسى لوعته، مقاساة يناجى بها صرعته، حتى اكتسى خده بالعذار، وامحت عنه مثل بهجة آذار، فسلا من كلفه، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفة، فقال^(٣):

(١) نفح الطيب ٥٥/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٦/٧.

(٣) نفح الطيب ٥٦/٧.

الآن لما صـوحت وجناته
واستوحشت منك المحاسن واكتست
أمسيت تبذل فى الوصال تصنعا
هلا وصلت إذ الشمائل قهوة
يا كم أطلت غرام قلب موجع
ما كنت إلا البدر ليلة تمه
لاح العذرا فقلت وجد نازح
إن ابن داية مؤذن بفراق
وله فيه - مناقضا - لذلك الغرض، معارضا للوعة سلوه الذى كان
عرض (١):

يلومون فى ظبى تزايد حسنه
وقد كنت أهوى خده وهو عاطل
وله أيضا فى مثله (٢):

أجيل الطرف فى خد نضير
إذا رمدت بحمرته جفونى
يردد ناظرى نظرى إليـه
شفاهها منه إثمـد عارضيه
أبو الحسن على بن جودى (٣). برز فى الفهم، وأحرز منه أوفر سهم،
وواخى بنفس فى المعارف زكية، وعانى العلوم بقريحة ذكية، وله أدب واسع
مداه، يانع كالروض بلله نداه، ونظم أرق من دمع العانى، ولطيف المعانى،

(١) نفح الطيب ٥٦/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٧/٧.

(٣) نفح الطيب ٥٧/٧.

وأعقب من نفس الخمائل، فى أكف الصبا والشمائل، ونثر كالزهر المطول، أو السلك المحلول، إلا أنه سها فأسرف، وزها بما لا يعرف، وتصدى إلى الدين بالافتراء، ولم يراقب الله فى ذلك الاجترأ، واشتهرت عنه فى ذلك أقوال سدد إلى الملة نصالها، وأبدى بها ضلالها، فعظمت به المحنة، وكمنت له فى كل نفس إحنة، وما زال يتدرج فيها ويتقل، حتى عثر وما كاد يستقل، فمر لا يلوى على تلك النواحي، وفر لا يتثنى إلا إلى لوائم ولواحي، وما زال يركب الأهوال ويخوضها، ويذل النفس بها ويروضها، حتى أسمحت ببعض الإسماح، وكفت عن ذلك الجماح، فاستقر عند أبى مالك فأواه، ومهد له مثواه، وجعله فى جملة من اختص من المبطلين، واستخلص من المعطلين، فكثيرا ما يصطف فيهم، ولا يدرى أيدخرهم أم يقتنيهم، وقد أثبت له ما يبهز سامعا، ويظهر برقًا لامعا، فمن ذلك قوله^(١):

أحن إلى ريح الشمال فإنها	تذكرنا نجدا وما ذكرنا نجدا
تمر على ريع أقام به الهوى	وبدل من أهليه جائزة ريدا
فيا ليت شعري هلا تقضى لبانة	فأرتشف اللميا واعتق القدا
خليلي لا والله ما أحمل الهوى	وإن كنت فى غير الهوى رجلا جلدا

وقوله أيضا^(٢):

سل الركب عن نجد فإن تحية	لساكن نجد قد تحملها الركب
وإلا فما بال المطى على الوجى	خفافا وما للريح مرجعها رطب

(١) نفح الطيب ٥٧/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٨/٧.

ومن قوله أيضا (١):

إذا ارتحلت غربية فاعرضا لها
لقد ساءنا أنا بعييد وأنا
يفجعنا إما بعاد مبرح
ظعنا على حكم الليالى وخطبها
وكنت أرجى الدهر بعد الذى مضى
أحقا يسير الركب لم ترتحل بنا
وقوله أيضا (٢):

سقى دارك اللاتى بيطن محصب
الم تعلمى يا فتنة القلب أننى
إذا نعبت غربان دار وجدتنى
وله أيضا (٣):

ألا خبر وللبلوى (٤) ضروب
حباك الله بالنعمى فنونا
متى تقضى بخسفتك الليالى
فلأنكم تجرون المنايا

(١) نفح الطيب ٥٨/٧.

(٢) نفح الطيب ٥٩/٧.

(٣) نفح الطيب ٥٩/٧.

(٤) فى المطبوع: «ألا يا خبر» والمثبت رواية نفح الطيب.

انتهى ما وجدت فى هذه الأوراق من مطمح الأنفس، وقد كنت على شك فى ذلك، فحين كتبتها تحققت أنها من كلام الفتح بلا ريب، ولم أرد - علم الله - بجلبها هزلا جرى أثناءها، ولكن الكلام جر إليه واتصل بعضه ببعض، وأما نظم الفتح فلم يكن فى طبقة نثره، بل كان منحطا عنه، ولذلك قال ابن الخطيب وغير واحد إن شعره وسط.

قال فى الإحاطة: ومن شعره قوله - وثبت فى قلائده يخاطب أبا يحيى ابن الحاج^(١):

أَكْعَبَةُ عَلِيَاءٍ وَهَضْبَةُ سُوْدَدٍ^(٢) - انتهى.

وهذه الأبيات ذكرها فى القلائد - فى ترجمة ذى الوزارتين ابن أبى الخصال، ولنورد تلك الترجمة بجمليتها تماما للفائدة، ونصها^(٣): ذو الوزارتين الكاتب أبو عبد الله بن أبى الخصال - أعزه الله - هو وإن كان حامل المنشأ نارله. لم ينزله المجد منزلة، ولا فرع للعلاء هضابا، ولا ارتشف للسناء رضابا، فقد تميز بنفسه، وتحيز من جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته، والذي ألحفه بالمجد، وأوقفه بالمكان النجد، ذكاء طبع عليه طبعه، ونجم فى تربة النباهة غربه ونبعه، وتعلق بأبى يحيى بن محمد بن الحاج - وهو حامل الذكر، عاطل الفكر، فملك قياد مأموله، وهب من مرقد خموله، وقدر استعماله إياه زناد ذكائه، وأبدى شعاع ذكائه، ولم يزل عاثرا معه ومستقلا، ومثريا حينا وحينا مقلدا - إلى أن تورطوا فى تلك الفتنة التى ألقوا حائلها،

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الحجاج» وصوابه من قلائد العقيان.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

(٣) قلائد العقيان، ص ٥١٨.

وما لمحوا مخايلها، وطمعوا أن يغتالوا من أمير المسلمين، وناصر الدين - ملكا معصوما، وأبرموا من كيدهم ما غدا بيد القدر مفصوما، وفي أثناء بغيهم، وخلال جرمهم الويل وسعيهم، كانت ترد عليهم من قبله - أيده الله - كتب تحل ما ربطوه، وتروعههم مما تأبطوه، فلم يكن لهم بد من إدنائه، لحسن مراجعته عنهم وغنائه، فورد عليهم ليلة كتاب راعهم، وأنسأهم جلادهم وقراءهم، وهم بمجلس أنس فصحاء من حمياه، ومحوا منه عبق الأنس ورياه: فأسدعاه في ذلك الحين للمراجعة عن فصوله، والمعارضة لفروعه وأصوله، فأبان عن الغرض، وخلص جوهره من كل عرض، وأبدع في إحكامه، وبرع في قضاياه وأحكامه، فحمل أبا يحيى بن محمد استحسان ما كتبه، إن خططه للحين ولقبه، والمدام لرأيه الفائل مالكة، وبعقله في طرق الخبال سالكة، فلم يعمل فيها فكرا، ولم يتأمل أعرفا أتى أم نكرا، فجرت عليه لقبا، وأعلته من الاشتهار مرقبا، وصار مرتسما في العلية، متسما بتلك الحلبة، وما زالت الدول تستدنيه نائبا، وتنتهيه دانيا، وما أجعله مجنيا عليه ولا جانبا، فما رفع شومه، ولا محو وشومه، وقد أثبت له ما تجتليه، فتستحيله، وتلمحه، فتستملحه، فمن ذلك قوله في مغن زار، بعدما أغب وشط منه المزار^(١).

وافى وقد عظمت على ذنوبه في غيبه قبحت بها آثاره^(٢)
فمحا إساءته بها إحسانه واستغفرت لذنوبه أوتاره
وكتبتُ إليه^(٢) عندما وصل أمير المسلمين، وناصر الدين إلى إشبيلية، صادرا من غزوة طَلَبِيْرَة سنة ثلاث وخمسمائة ووصل في جملته، ونزل

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢١.

(٣) هذا الصواب من قلائد العقيان، ص ٥٢١ والذي في المطبوع: «وكتب إلى».

بمحلتة، واتفق لى شغل توالى واتصل، إلى أن رحل أمير المؤمنين - أيده الله -
- وانفصل، فسألت عنه، فأعلمت أنه سار معه، وما فارق مجتمعه، فكتبت
إليه - مستدعيا من كلامه ما أثبتته فى الديوان، وأنبته فيه زهر بستان، فوافاه
رسولى من البلد على مرحلة، فى ليلة من ضياء البدر ممحلة، فكتب إلى -
مراجعا - الحذر - أعزك الله - يؤتى من الثقة، والحبيب يؤذى من المقة، وقد
كنت أرضى من ودك - وهو الصبح - بلمحة، وأقنع من ثنائك - وهو
المسك - بنفحة، فما زلت تعرضنى للامتحان، وتطالبنى بالبرهان، وتأخذنى
بالبیان، وأنا بنفسى أعلم، وعلى مقدارى أحوط وأحزم، والمعيدى يسمع به
لا أن يرى، وإن وردت أخباره تترى، فشخصه مقتحم مزدرى، ولا سيما من
لا يجلى ناطقا، ولا يبرز سابقا، فتركه والظنون ترجمه، والقال والقيـل
يقسمه، والأوهام تحله وتحرمه، وتحببه وتخرمه، أولى به من كشف القناع،
والتخلف عن منزلة الامتناع، وفى الوقت من فرسان، هذا الشأن، وأذمار،
هذا المضمار، وقطان هذه المنازل، وهداة تلك المجاهل، من تحسد فقره
الكواكب، ويترجل إليه منها الراكب، فأما الأزاهر فملقاة فى رباها، ولو
خلت عن المسك حباها، وصيغت من الشمس حلاها، فهى من الوجد تنظر
بكل عين شكرا لا نكرا، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبسوثة، وبدائعهم
منبوثة، وخواطيرهم على محاسن الكلام مبعوثة، فما غادرتهم متردما، ولا
استبقت لتأخر متقدما، فعندها يقف الاختيار، وبها يقع الاختبار، وأنا أنزه
ديوانه النزيه، وتوجيهه الوجيه، عن سقط من المتاع، قليل الإمتاع، ثقیل روح
السرد، مهلك صر البرد، إلا أن يعوذ به جماله، ويحرس بنقصه كماله،
وهبه - أعزه الله - قد استسهل استلحاقه، وطامن له أخلاقه، أترانى أعطى

الكاشحين فى إثباته يدا، وأترك عقلى لهم سدى، وما إخالك ترضاها لى مع الود خطة خسف، ومهواة حتف، لا يستقل غبينها، ولا يبل طعينها.

وله فصل^(١) منها: فلم نحل بطائل، وصرنا تحت قول القائل:

ترك الزيارة وهى ممكنة وأتاك من مصر على جمل

الزيارة هاهنا - أعزك الله - مثل لا لفظ محتمل، لأننى أوجبها، ولا أستوجبها، وأفرضها، ولا أفترضها، والتأويل على كل حال، لا يتعدى الجميل مذهباً، ولا يتخذ ليل الشك مركباً، وأنت المفتتح للصلة، المولى للمنة المشتملة، وإن رسولك وافى بكتابك الخطير - والشمس واجبة سقوط منازع، وحياة الذى يقضى حشاشة نازع، والبيت قد غص ببيانيه، وضاق لفظه عن معانيه، فاختلفت أحرفى هذه اختلاس مسارق، والتماح بارق، والخاطر مخاطر، والشغل مساهم مشاطر، يصدر فكرى إليه، ويخلع فقرى عليه، إلا صبابه، لا ترد صبابه، ورسيسا، لا يشفى نسيسا، فدونك واهى الدعائم، واهن العزائم، يتبرأ تابعه من متبعه، ويفر سامعه من مسمعه، ولولا أن الجواب فرض يجرح معطله، ويخرج عن ملة التصافى مبطله، لاعتذرت، واقتصرت، ولكنى أوثر حقك - وإن أبقي على دركا، وبوأنى دركا، وقد حملت فلانا ما سمح به الوقت، وإن اشتبه على القصد والسمت، وحاضرت بما يسرت إلى ذكره، على شريطة كتمانته وستره - انقيادا إلى أمرك، وتصديا إلى عقوقك ببرك.

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٣.

وله أيضا^(١): ليست الأذنان كالأعراف، والأُنْذال كالأشرف، ولا كل
أشرف بأشرف، فثم من يصم - ماولى، ويعمى عن الصبح - وقد جلى،
إن ذكر نسي، وإن عدل فكأنما أغرى، وكثيرا ما يمتد شططه، فتحذف نقطه،
ويهجر نمطه، وإن سامحناه فى الضبط، وأمتعناه بالنقط، نبذ الوفاء، فحذفنا
الفاء، وجفى الكريم، فألقينا^(٢) الميم، وله بعد ما بقى، ما ألقى، إن أشرف
فعلى الخطير العظيم، وإن اطلع ففى سواء الجحيم، ورب طويل النجاد،
غريق فى الاتهام والإنجاد، ولايته أمان، وعمله جنان، وخلقه رضوان، تود
النجوم أن ينظمها فى كتاب، أو ينسقها نسق حساب، قد ارتقى بخطته باذخ
السناء، وأخذ بضبعها رافعا إلى السماء، فهناك، وأنت ذاك، طاب الجنا،
ودنت المنى، وأيقن الشرف أنه فى حرم وحمى، أقسم بالمبتسم البارد،
والحيب الوارد، قسما تبقى على الشيب حدته، وتقر على المشيب جدته،
ذكرى من ذلك العهد مدت بسببه، ومنت إلى القلب بنسبه، ليحتون على
الكرام، وليجتروُن على الأنام، وليأخذن فوق أيديها، وليكفن من تعديها، ما
لها فتحت أثلاثهم، وتسمهم بغير سماتهم، وتصفهم بصفاتهم، وتعلمهم
بعلاتهم، فأين أنت من الذنب، وسنام قد استؤصل بالجلب، وكيف ارتياحك
بعد خَمْرٍ إن دارت، ولمكرمة بالشمس أشرقت وأنارت، لا جرم أنك منها
على ذكر، وبمدرجة حمد وشكر، وما هو إلا الشريف الأوحد، ولا ينكر
فضله ولا يجحد، أبو بكر - أعزه الله - وناهيك ثناء، وحسبك علاء وسناء،
فتى دهى فى ضيعته هناك بدواه، ورمى بخطوب غير ريوث ولا سواه،
ورأيك - أصاب الله برأيك، وجبر الأولياء بسعيك، فى تحصيل مراعاته،
وترفيهه ومحاشاته، ولولا عذر منع، لكان على أفقك النير قد طلع، ولكنه

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٥.

(٢) هذا الصواب من قلائد العقيان، وبهامشه: «فتصبح الكرى وهو السهاد»، والذي فى

المطبوع: «فألقينا»..

استتاب فلانا وحسبه أن يؤدي كتابا، ويقتضى جوابا، ويتصرف على حكمك
جيئة وذهابا - إن شاء الله .

وله يعتذر من استبطاء المكاتبة^(١):

ألم تعلموا - والقلب رهن لديكم يخبركم عنى بمضمرة بعدى
ولو قلبتني الحادثات مكانكم لأنهبته وفري وأوطأتها خدى
ألم تعلموا أنى وأهلى وواحدى فداء ولا أرضى بتفدية وحدى

ولما نكب^(٢) الوزير أبو محمد بن القاسم النكبة التى أنبأت بتعذر
الأوطار، لذوى الأخطار، وأعلنت بكساد الفضائل والمعالي، واستثار الوضع
على الماجد العالى، لأنه كان طود كمال، وبحر جمال، وناظم خلال، وعالم
جلال، وحين ثل الدهر عرشه، وأحل سواه فرشه، خاطبه كل زعيم مسليا
عن نكبته، وانتقاله من رتبته، فكتب إليه هو فى جملة من كتب، وإن كان
نازلا عن تلك الرتب، برقعة مستبدعة، وهى، مثلك - ثبت الله فؤادك،
وخفف عن كاهل المكارم ما أدهى بك وآدك، يلقي دهره غير مكترث،
وينازله بصبر غير متكتث، ويبسم عند قطوبه، ويفل شبابة خطوبه، فما هى
إلا غمرة ثم تنجلي وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلى، لا جرم أن الحر،
حيث كان حر وأن الدر - برغم من جهله - در، وهل كنت إلا حساما
انتضاه، قدر أمضاه، وساعد ارتضاه، فإن أغمده، فقد قضى ما عليه، وإن

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٧ .

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٧ .

جرده، فذلك إليه، أما أنه ما سلم حده، ولبس جوهر الفرند خده، لا يعدم
طبنا يشترطه، ويمينا يخترطه.

هذه^(١) الصمصامة، تقوم على ذكرها القيامة، طبقت البلاد أخباره،
وقامت مقامه في كل أفق آثاره، فأما حامله فنسى منسى، وعدم منفى، كلا
لقد فئت الحقائق، وأنبتت تلك العلائق، فلم يصحبه غير غرار، ومتن عار،
كلاهما بالغ ما بلغ، ووالع معه في الدماء ما ولغ، وما الحسن إلا المجرد
العريان، وما الصبح إلا الطلق الإضحيان، وما النور إلا ما صادم الظلام،
ولا النور إلا ما فارق الأكمام، وما ذهب ذاهب، أجزل منه العوض واهب:

لا تأس للمال إن غالته غائلة ففي حياتك من فقد اللهى عوض

ومن^(٢) قضى حق المساهمة في هذا الحال التى التوى عرضها، وتأخر
للأعذار القاطعة فرضها، أسف تردد، وارتماض تجدد، وذنوب على الأيام
تحصى وتعدد، وحبًا اللئام منها تحل وتعقد، فيعلم الله - عز وجهه - لقد
استوفيت فيك هذه الأيام، ونهت فيك حتى المزن عن الابتسام.

قال أبو نصر^(٣): وفي أيام مقامى بالعدوة، اتفقت بينى وبين أبى يحيى
بن محمد بن الحاج - سقى الله مصرعه، وأورده منهل العفو ومشرعه - مودة
استحكم توأخيها، وشدت أواخيها، وغدونا بها حليفى صفاء وإخلاص،
وألفى إخاء واختصاص، والزمان مساعد، وصرفه متباعد، والشباب خضل
يانع، والدهر مبيح ما هو اليوم مانع، والدنيا سرور وإيناس، والأرض ظباء

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٨.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

(٣) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

وكناس، فوقع بينى وبينه فى بعض الأيام تنازع أدى بنا إلى الانفصال، وتعطل تلك البكر والآصال، ثم نعى إلى عنه قول ضاق به ذرعى، واجتث منه أصلى وفرعى، فكلما صدنى عن الرحلة صممت ونكثت، من عرى التلوى ما كنت أبرمت، وبعد انفصالى علمت أن ذلك القول غدا زورا، ووشى به من غض أن يرانا زائرا ومزورا، فانقضت تلك المخيلة، وتحركت لوعته الدخيلة، وأكدت تجديد ذلك العهد الرائق، وكف أيدى تلك العوائق، فكتبت إليه^(١):

أكعبة علياء وهضبة سؤدد	وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئا لملك ران أفقك نوره	وفى صفحتيه من مضائك أسطر
وإنى لحفاق الجناحين كلما	سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر	فبت وأحشائى جوى تتفطر
فهل لك فى ود ذوى لك ظاهرا	وباطنه يندى صفاء ويقطر؟
ولست بعلق بيع بخسسا وإننى	لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

فأمره بمراجعتى فكتبَ عنه بقطعة منها^(٢):

ثنت عزمى عنانى وربما	ثنت عزمة الشهم المصمم أسطر
ونالت هوى ما لم تكن لتناله	سيوف مواض أو قنا متأطر
وما أنا إلا من عرفت وإنما	بطرت ودادى والمودة تبطر
نظرت بعين لو نظرت بغيرها	أصبت وجفن رأى وسان أشطر

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

وقد منّا بذلت الود والحب فطرة وما الود إلا ما يخص يفطر
وكتب إلى الوزير المشرف، أبى بكر بن أحمد بن رحيم يهنئه بولاية
خطة الإشراف بحضرة إشبيلية وذواتها فى شوال سنة خمس عشرة
وخمسمائة^(١):

إذا ما شرف الإشراف قوما فإن بنى رحيم شرفوه
ومن يعرف به لهم قديما وإن رغمت أنوف عرفوه
كفاة للملوك على سبيل ودين نصيحة ما حرفوه
أبو بكر له ولهم كفيل بكل كفاية إذ صرفوه
وما الإشراف إلا عبد قن لهم فمتى تولى استصرفوه

هذه^(٢) - أعزك الله - بديهة البشرى، وعجالة كعجالة القرى، ويريد
إلى أمم تلك القرى، فإنى لها بالإقبال ضمين، وعلى ألية ويمين؛ لتحوطنها
أقلامك، وليحمدن فيها مقامك، لتعرفن بالغرر والحجول أيامك، فحالفك
السعد، ولا عدمك الملك الجعد، وأبل وأخلف مثلها جددا - بعد، وما حق
من بشر باعتلائك، وسرى بأنبائك إلى أوليائك - أن يؤخر مراده، أو يضيع
عمله واعتقاده، وإن الحاج أبا عبد الله بن سعدان آملك الداعى لك - أبقاه
الله - أخبرنى بهذه المسرة والديمة الثرة، ولقد هممت على هذا البرد، بخلع
البرد، وحل العقد، وفض النقد، فدافعنى انقباضا، وأعلمنى أن له فى
علمك - أبقاك الله - أغراضا، تكون على ذلك أثمانا وأعواضا، وأرانى عقدا

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣١.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣١.

يشهد بعدمه، وصحة ما استحشه في مقدمه، وأنه ليس له سوى غرس قد صار عليه كلا، بل استدار في ساقه كبلا، والتوى في عنقه غلا، وأض له غُلاً لا مُغلاً، ولك الفضل أن يفتح نظرك - وفقه الله - بالتخفيف بمثله عن الضعفاء، ومن لا قدرة له على الأداء، وحمل الأعباء، فإن ذلك ذكر في العاجل، وأجر في الآجل - انتهى. لفظ القلائد.

وقد قدمنا عن صاحب الصلة أن بطالة الفتح، أخلدت به عن مرتبة ذي الوزارتين، الشاعر المجيد الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال - رحم الله الجميع، وابن أبي الخصال المذكور، هو: محمد بن أبي الخصال مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغافقي، أوليته من قرية بشقورة، تسمى فرغليط، وبها نشأ، ومنها تردد إلى الحاضرة في طلب العلم، ثم سكن قرطبة، يكنى أبا عبد الله، ويلقب ذا الوزارتين، وقيل: إن خلصة هو المكنى أبا الخصال - قاله أبو بكر بن خير وغيره، والأول قول أبي القاسم بن حبيش، وكان ينزل في اجتيازه عند ترده إلى الحاضرة على أبي الحسن بن مالك اليعمرى، القاضي بأبذة^(١)، وقد أخذ عنه يسيراً، وخرج معه - وهو فتى السن - إلى حديقة له معروشة، فقطف من أعلاها عنقود عنب أسود بعصى أهبطه بها على ترفق، فقال القاضي - محركا له، ومختبرا بديهته:

انظر إليه في العصي

ثم قال: اجز يا محمد، فقال - مجيباً لفوره -

كرأس رنجى عصي^(٢)

(١) هذا الصواب من معجم الصدفى وتفتح الطيب، والذي في المطبوع: «أبذة» بالدال المهملة.

(٢) المعجم فى أصحاب الصدفى ص ١٤٤ - ١٤٥ (ط). الثقافة الدينية ٢٠٠٠م، مصورة عن طبعة أوروبا).

فلحظه القاضى أبو الحسن بعين أخرى، وحكم له بما اقتضاه علمه من
مزية كبرى، سمع ذو الوزارتين من أبى الحسين بن سراج، وأبى محمد بن
عتاب، وأبى بحر الأسدى، وأبى بكر بن غالب بن عطية، وأبى الحسن بن
الباذش، وأخذ هو عنه - أيضا فتدبجا، وأبى بكر بن سائق الصقلى، ولقى
بالمرية أبا على الصدفى، فقرأ عليه صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومصنف
أبى داود، وأكثر صحيح البخارى، وكتاب عبد الغنى مشته النسبة، وأجاز ما
يحملة، وكتب إليه أبو عمران بن أبى تليد، وأبو على الغسانى، وابن أخت
غانم، وأبو عبد الله محمد بن على المازرى - مع جماعة من المشرقين
وغيرهم، وشارك القاضى أبا الفضل عياضا فى كثير من شيوخه ممن تقدم
ذكره وغيره، وعنى بالحديث فأتقنه، وإليه انتهت البلاغة، وعليه قصرت،
وبموته فقدت، وصفة بهذا أبو القاسم بن حبش وغيره.

وقال فيه ابن بشكوال^(١): معجزة وقته^(٢)، وجمال جماعته، وكان
متفتنا فى العلوم، مستبحرا فى الأدب واللغة، عالما بالأخبار ومعانى الحديث
والأثر، والسير والأشعار، أحد رجال الكمال.

قال ابن الأبار: سمعت شيخنا أبا الربيع^(٣) يقول: سمعت أبا الحسين
عبد الرحمن بن أبى عامر الأشعرى يقول: سمعت الفقيه أبا مروان بن مسرة
يقول: لم يطلق اسم كاتب بالأندلس على رجل قبل أبى عبد الله بن أبى
الخصال. قال: وحكى لنا شيخنا أبو الحسين بن سراج، أن خاله أبا بكر بن

(١) الصلة لابن بشكوال، ص ٥٥٧.

(٢) فى الصلة: «مَفْخَرَةٌ».

(٣) نقله صاحب المعجم (ط. أوروبا)، ص ١٤٦.

خير، وأبا القاسم بن بشكوال، وأبا القاسم غالب - المعروف بالشرائط، قصدوا ذات يوم قبر أبي عبد الله بن أبي الخصال، وقد وعدوا أحد تلاميذهم أن يقرأ هنالك عليهم قصيدته اليتيمة، التي وسمها^(١) بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» قال: وكنت ممن صحبتهم لأخذها عنهم، فسمعتهم يترحمون عليه، ويقولون عند انتهائهم إليه - السلام عليك يا زين الإسلام، ومع كماله لم يحظ من أمراء عصره بآماله، وهي عادة الأيام العادية في أمثاله، توارى مما بهر، وخفى أضعاف ما ظهر، وسار أخوه أبو مروان بالكتابة عنهم أشهر.

والذى قعد بأبى^(٢) عبد الله هو قيام ابن الحاج أمير قرطبة على ابن تاشفين، وثورته التي نكب عنها ونجا، ولكن كيف منها؟! وكان هو حيثئذ أوثق حاشيته وأسبابه، وألصق وزرائه وكتابه، مع أن اختصاصه لم يكن إلا بابنه أبي يحيى أبى بكر بن أبى عبد الله، حتى أوسمه بذى الوزارتين، فجرت عليه تخصيصا بعنايته، ومكافأة لكفائته.

فكم جلا^(٣) من تلك الخطوب الجلائل، وأبلى باليراع والرسائل، مكان ذات الأغمد والحمائل، ولما استقل ابن الحاج، وولى ما ولى من أعمال المغرب، عاد ابن أبى الخصال لصحبته هنالك هو وأبو بكر بن عبد العزيز، وطائفة انضوت من حرمة إلى الحصن الحصين، والحرز الحريز، وذلك لشوف هذا الأمير على أترابه، وخفوف ذاته الراجحة في حقوق أصحابه،

(١) فى المطبوع: «رسمها» تحريف.

(٢) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

(٣) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

ثم إنهم انتقلوا بانتقاله إلى سرقسطة أم الشجر (الشرقي)^(١) حين حلها. ذابا عن أرجائها، ومجاهدا لأعدائها، حلول البر التقى.

وإذ حمت^(٢) شهادته قافلا من غزاته في التاريخ المعلوم^(٣)، كسد ما نفق في أيامه من بضائع العلوم، وناصع المشور والمنظوم، فلزم أبو عبد الله داره خائفا من تلك الأحقاد القديمة وراضيا بالإياب إليها من الغنيمة، وفي أكثر عمره ارتد على العقب مأموله، وامتد بطول مدة ابن تاشفين خموله، وإن كان لا يسمى خاملا، من شهد للحلم حاملا، وعهد بالعلم عاملا، وحسبك بما له من التواليف الدينية، إلى أن ختمت منيته بالفتنة الحمدينية، فاستشهد - رحمه الله تعالى، ودفن يوم الأحد الثالث عشر لذي الحجة سنة أربعين وخمسمائة، وكان دفنه ضحى بمقبرة ابن عباس، قال ابن حبيش: استشهد في الحادثة الكائنة بقرطبة يوم السبت الثاني عشر من ذي الحجة، ومولده سنة خمس، وقيل، ثلاث وستين وأربعمائة.

قال بعض من عرف به: والظاهر في مقتله^(٤) أنه اقتحمت عليه داره - إذ دخل المصامدة قرطبة عنوة في الحرب الواقعة بين ابن حمدين وابن غانية - وأول انقراض سلطان الملتمين بالأندلس.

قال ابن الأبار: وكان شيخنا^(٥) الأديب الحافل، أبو الحسن على بن محمد بن حريق يذكر أنه كان واقفا بباب داره، فمر به بعض المصامدة وقد ارتكبوا من الجرم، واستحلوا من المنكر، ما حمله على زجرهم، والإغلاظ

(١) ما بين الحاصرتين من المعجم.

(٢) المعجم ص ١٤٧.

(٣) يعنى به سنة ٥٠٩.

(٤) المعجم، ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

(٥) المعجم لابن الأبار ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

لهم، ثقة بمكانته، وعملا بمقتضى ديانتهم، فاجترأ أحدهم عليه، واستدار من خلفه - وهو مشغول بما بين يديه، وما لبث عدو الله أن ذبحه، فخر لفيه وفجع الإسلام فيه، - فالله أعلم.

قال: وقد أطرفنا أبو عبد الله بن الصفار الضير شيخنا، من قتل قاتله بقصة عجيبة وكان - رحمه الله تعالى - صاحب غرائب مفيدة، وفوائد غريبة، فحكى أن مفيت نفسه الطاهرة، وسماه "تيفوت" ما زال بذلك يكثر الافتخار، ويظهر لمن يحزنه أمره - الاستبشار، حتى عرف بقاتل ابن أبي الخصال - سِمةً غدت إليه، وأهدت حينه إليه، قال: وكان لابن غنية على فقد غناؤه أسف زائد: هو بمجدهم شاهد، ولمحمدهم سائد، وهذا الآثم قد أركبه البحر إليهم سيل الفتنة، واعتقد أنه بمورقة جان للمنحة، وناج من المحنة، فرجما جفوه إذا رآوه، ومقتوه متى لحظوه، واتفق أن عاينه يوما إسحاق ابن محمد - وتيفوت البائس قد ذهب فتاؤه، وكتب بنفوذ قضاء الله فيه فتاؤه، فدعا به، واستدهى منه وصف عدائه، فما فرغ من ذلك حتى التفت إسحاق إلى جلسائه، وقد غضب واستشاط، وزوى الله تعالى عنه الاسترسال والانبساط، وقال: ينبغي لمن قتل ابن أبي الخصال أن يقتل، ويحق لمن لم يرع حقه أن يعاجل ولا يهمل، ثم أمر فأجهز عليه، وجر برجله من بين يديه، هذا أو معناه ما أسمعناه، وإنها لآية في الأخذ بثأره، وعناية من عالم إعلانه وأسراره، علم بها أنه تقبل أعماله، ورحم جلاله وجماله^(١).

(١) المعجم لابن الزيار ص ١٤٧ - ١٤٨ (ط. أوروبا) وإلى هنا ينتهي كلام ابن الأبار في المعجم.

ومن شعره - رحمه الله :

يا حبيذا ليلة لنا سلفت أغرت بقلبي الهوى وما عرفت
دارت بظلماتها المدام فكم فرجسة من بنفس قطفت
ثم انطوى دهرها ومن أسف إن صرفت لوعتي وما انصرفت
وله في وصف نار مضرمة في فحم :

أما ترى النار وهي راقصة تنفض أردانها من الطرب
تضحك من ابنوسها عجا إذ حولت عينه إلى ذهب
وله في مطيب ورد مفصل بترنجان :

وورد جنى طالعنا خدوده يبشر ونشر يعيشان على السكر
وحف ترنجان بها فكأنها خدود العذارى في مقانعها الخضر

وشعره كثير أوعب ذكره^(١) - ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي،
وذكره ابن بشكوال، وابن الزبير في الصلة - وليس من شرطه، وابن بسام في
الذخيرة، ولابن أبي الخصال - رحمه الله - عدة قصائد نبوية، منها قصيدته
الشهيرة المسماة بـ «معراج المناقب» ومنها عدة قصائد عارض بها بعض قصائد
حسان بن ثابت - رضى الله تعالى عنه.

وقد رأيت أن أذكر تأليفا للإمام ابن حبيش، اشتمل على تخميسها
فيكون فيه المطلوب وزيادة، وقد ألفيته بخط مؤلفه بل أحد تلامذته، وهذا
نص ما كتب على ظهره - بعد أن سماه بـ «العقيلة الحالية، والوسيلة العالية»
في تخميس القصيدة المسماة بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» -

(١) في هامش المطبوع: «لم يذكر ولا بيتا من شعر ابن أبي الخصال، ولعل مراد المؤلف أن
ابن الأبار استوعب الكلام عن ابن أبي الخصال، كما سبق.

فى معجزات رسول الله - ﷺ، ونسبه الشريف، ومناقب أصحابه الكرام - ﷺ تسليماً، ورضى عنهم أجمعين - من نظم الفقيه الأبرع، البليغ المصقع، الكاتب المتفنن، العارف المتسنن، أبى عبد الله محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة أبى الخصال الغافقى - رحمة الله عليه، خمست ليتوسل فيها إلى الله العظيم، بمدح نبيه الرؤوف الرحيم، ورسوله الأواه الحليم، ويتحلية أهل بيته الكريم، وأصحابه أولى السبق والتقديم، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ذوات البر والتكريم - صلى الله عليه ثم عليهم أفضل الصلاة، وسلم أشرف التسليم، وأعقلنا من حبه وحبهم حرمة تحرم بنا من التنعيم إلى جنات النعيم، وأذمة تنفعنا بالتصميم على الود الصميم وإيماننا تحجم عن نوره نار الجحيم، وأمانا يتلقانا يوم الفرع الأكبر بالسلام والتسليم، ويهديننا بكرمه المعين هداية العلية للصراط المستقيم، ويؤوينا إلى حرمة الأمين، وأية الفتنة إلى الكهف والرقيم^(١)، ويميزنا بعناية سيد البشر وشفيع المحشر، تميز الأغر من البهيم، ويخصنا من شفاعته المشفعة، ومجاورته المرفعة، بالقسم الوجيه، والوجه القسيم، ويسكتنا بين كرام أكرمتهم عبادة ونسك، ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مُخْتَلِمٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ... (٢٦)﴾ [المطففين]، ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧)﴾ [المطففين]، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء] تأليف الفقيه أبى عبد الله محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي المرسى - رضى الله عنه - انتهى ما على ظهر الكتاب، وهذا أوان سرده بكماله - إن شاء الله تعالى.

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف].

قال الشيخ ابن حبيش - رحمه الله :

جلت عن ذكاء الحسن غيم التنقب

لتثنى غربى عن ثنايا التغرب

بأحور ساج أو بالعس أشنب

إليك فهمى والفوائد بيثرب

وإن عاقبنى عن مطلع الوحي مغربى

وكتب بالطرة ما نصه الرواية إليك - بفتح الكاف، ولكن الخمس أراد

الاستفتاح بيسير من الغزل، فقاده ذلك إلى كسر هذه الكاف، ولم يبدل من

هذه القصيدة فى هذا التخميس تحريك ولا تسكين إلا فتحة هذه الكاف.

انتهى.

قال ابن حبيش الخمس رحمه الله ورضى عنه :

صحبت الليالى فانجلى لى سرها متى تخدع المشتاق - لا در درها

فيذهب أحلاها ويبقى أمرها أعلل بالآمال نفسا أغرها

بتقديم غاياتى وتأخير مذهبي

أجل مرادى لو تساعد أسعدى حنين ركابى نحو حاد مفرد

ولا حاجز دون الحجاز لمقصدي ودينى على الأيام زورة أحمد

فهل ينقضى دينى ويقرب مطلبى

متى تسعد المشتاق بالقرب رحلة تقابل فيها للمدينة قبلة

وهل تشتري بالروح فى الترب قبلة وهل بقيت من مركب العمر فضلة

تبلغنى أم لا بلاغ لركبى

وهل يشتفى من مكة أهل غيبة وهل وقفة فى باب أبناء شيبة

أرجى الرضى فيه بتعفير شيبة وهل أردن فضل الرسول بطيبة

فيا برد أحشائى ويا طيب مشربى

مغان تجير المذنبين بجاهها غدت جنة إن لم تكنها تضاهها

جسرى ضرب بالمسك بين رداها ألا ليت زادى شربة من مياهها

وهل مثلها ربا لغلة مذنب

فليت الصبا ركب بروحى سائر لأرض ثواها ناصر ومهاجر

وليت ثراها إثمى لى عاطر ويا ليتنى فيها إلى الله صائر

بقلب عن الإيمان غير مقلب

لقد فاز من أمضى القضاء اعتزامه فطنب فى دار الرسول خيامه

وطيب محياه بها وحمامه وإن امرءا وارى البقيع عظامه

لفى زمرة تلقى بأهل ومرحب

أجل بلاد الله مبدا ومحضرا بها اختار للمختار قبرا ومنبرا

فمن مات فيها بالشهادة بشرا وفى ذمة من خير من وطئ الثرى

ومن يعتلقه حبله لا يعذب

تناسمنى للشوق أعطر نسمة وتشرق لى بالشرق أنوار رحمة

فأقضى بهم أحياء بهمة ومالى لا أشرى الجنان بعزمة

يهون عليها كل طام وسبب

عنانى بيسرى والقناة بأيمن وعضبى أنيسى والتنوفة موطنى

فمالى إذا أمضيت عزمى يثنى وماذا الذى يثنى عنانى وإننى

لجواب آفاق كثير القلب

أيفنى كذا عمرى وأمرى غمة وما الغدر - والأعذار فى الحب تهمة

أروع فإن الصب بالشوق بهمة أفقر ففى كفى لله نعمة

وبين فقد فارقت قبل - بنى أبى

تعطشت والحجاج من زمزم ارتوت ونالت-على رغم النوى-كل ما نوت

فمالى لا أطوى من البيد ما طوت وقد مرنت نفسى على البعد وانطوت

على مثل حد السمهرى المذرب

أوامر سلطان الهوى كم أطعتها وحملت نفسى فرقة ما استطعتها

فكم واجبات لللقى قد أضعتها وكم غربة فى غير حق قطعها

فهلا لذات الله كان تغربى

إذا أحسن التأويل بى متجاوز فأيسر عيب فى أنى عاجز

أذو الصدق هالته السرى والمفاوز وكم فاز دونى بالذى رمت فائز؟

وأخطانى ما ناله من تقرب

أحب وفود الله لو كنت وافدا أو دعهم جمعا وأرجع واحدا

أحرص من يسرى وأخلد حائدا أراه وأهوى فعله البر قاعدا

فيا قعدى البر قم فتليب

لنفسى بتأمل البقاء اعتذارها وهبها تبقى والرجاء اغترارها

فأين إلى قصد الحبيب بدارها أمانى قد أفنى الشباب انتظارها

وكيف بما أعيا الشباب لأ شيب

خبأت لدهرى صولة ابن مكدم فألوت بحملى غربة ابن محلم

وللوخط فى فودى فتك ابن ملجم وقد كنت أسرى فى الظلام بأدهم

فقد صرت أغدو فى الصباح بأشهب

بمغترب التغريب طال توطنى وفى بلد التبليد ضاع تفتنى

ولا منقذ من بحر يغطنى فمن لى وأنى لى بريح تحطنى

إلى ذروة البيت الكريم المطنب

إلى المصطفى للبعث من خير محتد إلى المعتلى للقرب أرفع مصعد

إلى الشافع المنجى من النار فى غد إلى الهاشمى الأبطحى محمد

إلى خاتم الرسل المكين المقرب

إلى المقتدى حتى المعاد بهديه إلى المرتقى لله مرقى نجيه

إلى صاحب الخوض المغيث بسقيه إلى صفوة الله الأمين لوحيه

أبى القاسم الهادى إلى خير مشعب

إلى من له الإعجاز يعجز عنه إلى من رآه البدر فانشق عنه

إلى من سرافيل وجبريل جنده إلى ابن الذبيحين الذى صيغ مجده

ولما تصغ شمس ولا بدر غيب

إلى من تدانى قاب قوسين إذ سرى إلى سامع النجوى بلا واسط يرى
إلى المجتبى فى الغيب أكبر أكبرا إلى المتقى من عهد آدم فى الذرى
يردد فى سر الصريح المذهب

إلى مغرق الإسهاب فى بحر نعته إلى من تهدى كل هاد بسمته
إلى من تمنى الرسل إدراك وقته إلى من تولى الله تطهير بيته
وعصمته من كل عيص مؤثب

إلى خير مبعوث إلى خير أمة حبه يد التمكين أوفر قسمة
وحفته فى الأصلاب الطاف عصمة فجاء برىء العرض من كل وصمة
فما شئت من أم حصان ومن أب

كفاه من الرحمن مدحا مصرحا بشرح "ألم نشرح" وإيضاح "والضحى"
فقد أفحم القرآن من قال مفصحا كروض الربى كالشمس فى رونق الضحى
كناشئ ماء المزن قبل التصوب

غفرنا به للدهر كل إساءة جلا غيب الدنيا بأبهى إضاءة
كسا أوجه الأيام كل وضاعة عليه من الرحمن عين كلاءة
تجنبه إلام كل معجب

تقدس بدءا من شعوب جلية إلى متهاها من أعز فصيلة
فما مر إلا فى طريق فضيلة إذا أعرضت أعراقه عن قبيلة
فما أعرضت إلا لأمر مغيب

ولا طبعت إلا على البأس والندى ولا رضيت إلا إلى الخلد مصعدا
ولا عمرت إلا رباطا ومسجدا ولا عبرت إلا على مسلك الهدى
ولا عثرت إلا على كل طيب

فينمى حباه الله أنمى صلاته لكل سرى ساد بين سراته
بعالى معاليه وسامى سماته فمن مثل عبد الله خير لداته
وآمنة فى خير ضمنء ومنصب

كريمة وهب واهبا كل بدرة نمت فى كمام المجد أبهج زهرة
ولاحت بأفق السعد أشرق زهرة إذا اتصلت جءاتك أفلاذ زهرة
كأسند الشرى من كل أشوس أغلب

فلله بدر قد جلا كل حالك لإنجابه أنجى به كل هالك
فما مثل ذاك النور هاد لسالك ولا خال إلا دون سعد بن مالك
ولو كان فى عليا معد ويعرب

سجايا يا رسول الله نفسى لها الفدا عراب لأحباب عذاب على العدى
فما السحب إن أهدى وما الشهب إن هدى ومن ذا له جد كشيبة ذى الندى
وساقى الحجيج بين شرق ومغرب

ملك البرايا غير أن لم يبايعوا فأهلا بمرضى الفعال المتابع
وسهلا بمسموع المقال مطاوع سؤدد البطحاء غير مدافع
وحرمة ما بين الصفا والمحصب

رئيس قریش عند سلم وغزوة بظل لواء أو بمجلس ندوة
يفض لجيش الحبش أوثق عروة أبو الحارث السامى إلى كل ذروة
يقصر عن إدراكها كل كوكب

رأوا بركات في كراه ونبيهه وبدلهم عشر الورود برفهه
وجاد به دهر بخيل بشبهه وناقره حرب فكب لوجهه
وقد كان لولا جوده فوق مرقب

أضاف لكسب الحمد ميراث جلة وأضفى من الأمداح أسبغ حلة
ولما نوى صهرا بأشرف حلة أتيحت له خير الفواطم والتي
أتيح لها في المجد خير مركب

فما على كل من الحق أوجبت بما من أبى خير البرية أنجبت
لسيد آل الله طرا تقربت عقيلة مخزوم وعمران فاحتبت
على خير مولود وأكرم محتب

لقد مهدت خيرا على مهدها ربي رضية أخلاق سنية مذهب
سرية أعراق عليه منصب وطيبة حمت لأطهر طيب
مطيبة زفت لكفاء مطيب

تميم دار الأمن أهل خيانة فقد صرفوا عن عزها بإهانة
ودان بنو حام لحامى ديانة به وبما فى برده من أمانة
حمى الله ذاك البيت من كل مرهب

غرايب عافت بقعة النسك بعقهم أتوا حرما أضحى به القتل شرعهم
فرد عليهم صانع الخلق صنعهم وأهلك بالطير الأبايل^(١) جمعهم
فيا لهم من عارض غير خلب

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ [الفيل].

مبادئ إعجاز تلتها نهاية بمولود ذاك العام عمت عناية

فللدار والجيران عنه رعاية وفيما رآه شيبة الحمد آية

تلوح لعين الناظر المتعجب

وفى أمره فى الحلم بالسقى مسرعا وفى سلسل من مبرك العود أنبعا

وفى نذرة ذبح ابنه متبرعا وفى ضربه عنه القداح مروعا

ومن يرم بين العين والأنف يرهب

وقد نال منه أن ينال حبيبته فأقبل يدعو والفضاء يجيبه

لفرعك زهر يملأ الأرض طيبة وما زال يرمى والسهام تصيبه

إلى أن وقته الكوم من نسل أرجب

أعاد ثلاثا ضربها متعوذا فلما استقر الأمر قال: انحروا إذا

وأبقاه حكما فى الديات منفذا وكانوا أناسا كلما أمهم أذى

تكشف عن صنع من الله معجب

إذا غضبوا فالله للقوم يغضب ومهما رضوا فالمزن يهمى ويسكب

هناك صفا عذب وأزهر معشب وعاش بنو الحاجات منهم وأخصبوا

وإن أصبحوا فى مربع غير مخصب

لهم نبأ أسماعنا تستعيده لذيد يشور الشهد منه شهده

وكيف على الأيام يبقى جديده وعمرو المعالى هاشم وثریده

بمكة يدعو كل أغبر مجذب

إذا ندف الصنبر كل سبيخة وصمت لعصف الهوج كل مصيخة

دعا الجفلى من غلمة ومشیخة لشتى جفان كالجوابى منیخة

ملئن عبيطات السنام المرعب

فلولاه ما لاذ العناة بمنقذ ولا عاذ سكان الصفا بمعوذ

ولا سددوا فى الرحلتين لمنقذ هو السيد التبوع والقمر الذى

على صفحته فى الرضى ماء مذهب

ولما دنا للدين إطلاع بدره ونقب عمرو عن حظية عمره

لتختار للمختار من حى نصره بنى الله للإسلام عزا بصهره

إلى منتهى الأحيا من آل يثرب

درى أن سبىدى الغيب مه سريرة فرام على ذاك الظهور ظهيرة

ومن صفوة الإيثار صافى أثيرة وخص بسلمى بنت عمرو ذخيرة

على كل بكر من قریش وثیب

تیمن خطبا إذ تیامن خطبة وأسس بین النضر والأوس قربة

وطنب فى أعلى المدينة قبة فأثبت للإسلام فیها محبة

وقناد من الأنصار كل محبب

إلى وده انقادوا قروما مصاعبا أدرهم عام المحول سحابا

وأطلعهم لیل الحروب كواكبا وكتب منهم للرسول كتابا

عليهم من الماذى كل مكتب

فمن متقاض بالقواضي ديونه وبيان على متن الحصان حصونه
ومستعذب طوع النبی منونه يفدونہ يوم الوغى ويقبونه
بأنفس صدق بأسها لم يكذب

سقط بذئاب الكفر شدات أسدهم وكم بذلوا الأرواح صونا لمجدهم
فما نصر المختار إلا بجندهم وما دوخ الكفار إلا بحدهم
سنان طرير أو سنان محرب

بنو النضر أسمى حلة حيث حلت بدور تجلت فى سماء التجلة
رياض معال أثمرت وأظلت وعبد مناف دوحة الشرف التى
تفرع منها كل أروع محرب

تسمية أمال النوالى بكنزها وتأوى ملوك الأرض منه لحرزها
وتعنو نواصيهم له خوف جزها مطاع قریش والكفيل بعزها
ومانعها من كل ضيم ومنهب

ولما اقتفى من أشرف الصهر سنة وقد آن أن يستشعر الخلق منه
ترحزح عن نار وتسكن جنة تخير من سر العواتك مزنة
لهاشمه جادت بأمرع صيب

بأروع مطعام لدى كل لزبة وأليس مقدام على كل سرية
وأبلج بسام إلى كل كربة وما كان ذاك الطود إلا لهضبة
ذوائبها فوق السماك المذاب

صفات كروض الحزن - والمزن همع يلذ له مجنى ويذكو. تضيع
هم ما هم قد راق مرأى ومسمع وزيد ومن زيد قصى مجمع
سمعت وبلغنا وحسبك فاذهب

إليه خبيئات المكارم أبرزت وبالمذح فيه حلة الفخر طرزت
شريف كم اعتزت بطون له اعتزت به اجمتعت أحياء فخر وأحرزت
تراث أبيها دون كل مذبذب

أعاد المجلى فى العدى كسكيتيه بما قاده من ورده وكميته
فطعامهم لم يثن ليتها لليتيه وأصبح ملك الله فى آل بيتيه
فهم حوله من سادنين وحجب

لقد حفظت فيهم حقوق مضاعة ومن بيتهم ردت عليهم بضاعة
وعن إرث إسماعيل دبت قضاة وما أسلمته عن تراض خزاة
ولكن كما عض الهناء بأجرب

تألف ما ألفى من الأرض شاغرا وأطفأ من كيد الأعاجم واغرا
وبالعضب صلتا ألقم الليث فاغرا وقد رد سابورا عن البيت صاغرا
بخطبة فصل أبعدت كل مقرب

وإذ جاش جيش الفرس من كل جلهة محا جمعهم محو الدليل لشبهة
وعفر منهم رعبه كل جبهة وردهم من كل أوب ووجهة
عباد يد لا يلوون نحو المشوب

تحلت قريش منه أبهى فضيلة ورتب حول البيت كل قبيلة

كما حف تقصار بجيد عقيلة وأيد من حبي بخير حليلة

نماها حليل فى ذؤابة يشجب

حوى الكعبة العليا فأعلى كعبه وحفته أقمار المحيط وشبهه

فما بوركى إلا حصان تربه وحسب التى جاءت بزيد وحسبه

بفخر لها منه على الدهر محسب

خسولته تنمى لصيد أكابر فمن أين لا يستل غضب المفاخر

ويحتل ربع المجد أشرف عامر وفاطمة من بيت عمرو بن عامر

وماء السماء الطاهر المتصيب

لمحتدها من يعرب الشرف العلى ففى الأزرد زاد الركب فى كل مجهل

ومن سيل سيل محا كل جدول وما سببت إلا لمجد مؤئل

توطده والله خير مسبب

فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه بنى شرفا قاد السماك عنانه

بجود عناه أو بجد أعانه وما مات إذ خلى عليه مكانه

كلاب ومن يشهده لم يتغيب

فمن أوجه نضرية ذات نضرة ومن شيم غر إلى شيم غرة

تلاقى السنا من أسرة وأسرة ولاذت قريش من كلاب بن مرة

بجذل حكاك أو بعذق مرجب

فما القطر إلا قطرة من بحوره وما الصبح إلا لمحة من سفوره

يفيض السنا فى شهبه وبدوره أبو الصرحاء الغر حيت بنوره

صريحة أبناء الشوير بن ثعلب

تتوج تاجى رفعة ومكانة وأسبغ بردى عفة وصيانة

فقضت به الآمال كل لبانة لهند ومن هند كخير كنانة

نجيبة عصر جهزت نحو منجب

تجلى لعين الزين أبهج قرة وراق بسلك الملك أنفس درة

وزان محيا الحى أشرف غرة ومرة ذو نفس لدى الحرب مرة

وفى السلم نفس ابصر خدى المذرب

تقابل فى الأمجاد من كل جانب وسادته سروا باهرا للكواكب

خثولة فھر فى عمومة غالب لوحشية البيضاء بنت محارب

فسيمته فى أصله المتشعب

نمته كرام زينوا البأس باللهى يفيضون إيمانا ينيرون أوجهها

سموا كالدرارى والمعاند كالسهى وكعب عقيد الجود والحلم والنهى

وذو الحكم الغر المبشر بالنبى

مشهر عليها وكاتم عرفه وواصف هدى يهتدون بوصفه

يسود بواديه يقود بزحفه خطيب لؤى واللواء بكفه

لخطبة ناد أو لخطه مقنّب

قضى فى اللهى بذلا وفى العرض منعة أجل بنى فهر جللا ورفعة

وأقوم من فى فترة الوحي شرعة وأول من سمى العروبة جمعة

وصدر أما بعد يلحى ويطبى

فيا طبقات اللحد كيف علوته وما طمعت زهر النجوم بفوته

وقبل الظبا فل الجيوش بصوته وأرخ آل الله دهرا بموته

سنين سدى أتعبن كف المحسب

وعادات عرب أن تحافظ عهدا بتاريخها من موت من جل عندها

وقد أرخت من موت كعب وعدا بخمس مآت ثم عشرين بعدها

مكملة واستنطق الكتب تعرب

له عفر الأمجاد خد ضراعة فتلقاه عدنان بسمع وطاعة

وترضيه قحطان بجهد استطاعة لماوية الغراء خير قضاة

لكعب فتى القين بن جسر بن تغلب

مفرق وفر جامع للمحامد غدا خطوة تاجا لهام الفراقد

بغر المساعى والجدود الأماجد وأضحى لوى غالبا كل ماجد

ومن غالب ينميه للمجد يغلب

فناهيك من غض المحاسن أبلج ومن فاتح للمرئى كل مرتج

أقر له بالرق كل متزوج وجاءت به وجشية بنت مدلج

هماما متى يستقدح المجد يثقب

يتمم زيا للهياج متى ابتدى يعمم فيها بالردى كل مرتد
بمسرودة زغف وماض مهند وألقى عليه غالب كل سؤدد

يقصر عن أوصافه كل مسهب

بهم صحت الأزمان بعد زمانة وهدئت الدنيا لأهدى ديانة
ترقوا بأعلى الرسل أعلى مكانة وما منهم إلا مؤدى أمانة

يصان لها صون الضمير المحجب

لهم بأغر الخلق عز وحرمة تجلى بهم جلى وتفرج أزمة
وكلهم حامى الحقيقة بهمة وحامل نور حظه منه عصمة

وتقدسه من كل عاب ومجذب

خلال جلال مبدآت معادة نماها علاء باهر ومجادة
وغالبهم قد غلبته سيادة له من هذيل فى الصميم ولادة

تزاحم أعراف النجوم بمنكب

نزاع العدى منه بأروع أحوذى على السميت من أسلافه الصيد يحتذى
وزاد سموا آخذا كل مأخذ بليلى لغنم وابنة الحارث الذى

له الفيلق الجأواء من كل موكب

مضت أعصر - والقوم عصرة أهلها رأوا بركات الوحي قبل محلها
صلاح بها الإصلاح للأرض كلها وفهر أبو الأحياء جامع شملها

وكاسبها من فخره خير مكسب

أووا منه فى أزم الزمان وأزله إلى متبع فرض السماح بنفله

يسيد نداه ما يفيد بنصله تقررش فامتازت قریش بفضلہ

وسد فسددوا خلة المتأوب

أحان العدى رعبا وما سل منصلا وشعشع للأخلاق أريا وسلسلا

وقلد للقریش عقدا مفصلا وغادره اسما فى الكتاب منزلا

يمر به فى آية كل^(١) معرب

مذاكيه فى الأقطار داست ودوخت وفى كل روع كم أغاثت وأصرخت

بدا غزة فى جبهة الدهر شمرخت وجندلة بنت المضاضى شدخت

به كل دمر للعلی متوثب

يروع سرب الشمس إن هز نصله وتهفو الدراى حين يرسل نبه

أطل على المجر اللهم فطله فأصبحت الأعناق خاضعة له

كما استسلمت كدر البغاث لأشهب

تشابك عزا بالنجوم الشوابك وقالت علاه ما السماك بسامك

صوارمه للفتك فى كل فاتك ومالك المربى على كل مالك

فتى النضر حابته السيادة بل حبى

غمام سفوح بالحياة وبالردى به الرى للعافين والصعق للعدى

نوال لمن رجاء نكال لمن عدا هو الليث فى الهيجاء والغيث فى الندى

ويدر الدياجى حين يسرى ويحتبى

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ﴾ [قریش].

معرف عرف حسب ذى الحاج حجه وقبله آمال إليها التوجه
حودى الطود والضرغام والبحر سرجه تردى بفضفاض على المجد نسجه
ولبس عليه فليجر ويسحب

سيادته أعفت من المن منها وأيامه أبدت بحسنه حسنه
وآماله نالت بيمينه يمينها وفخرا لهند بنت عدوان إنها
به أم ويل طبق الأرض معشب

فيا لكريم فى الكرام مردد صدور القنا يلقي كصدر مهند
وحمر الظبا يهوى كخذ مورد وللنضر ما للنضر من كل مشهد
هو الشمس سعد فى سناها وصب

تباح عطايه ويحمى ذماره ويخشى معاديه ويأمن جاره
فلحكم نأديه وللعز داره ليالى أذكت فحمة الليل ناره
فما تستر الظلماء مقلة جندب

مقنى القنا من كل أغلب أضبط فكم شاحط من خوفها متشط
وكم ريع منه القاسطون بمقسط وقيد إليه كل ملك مسلط
يقال له أقبل ذليلا أو اذهب

درى كل ملك أن سيد خندف سيثقفهم بالجود أو بالثقف
فدانوا بتأميل له وتخوف فيزحف فى أغلاله كل مترف
ويرسف فى اقتاده كل مصعب

ملك كفته جرده عن أسرة ضحكوك إلى الآمال جم المسرة
عبوس لدى الأمثال جهم الأسرة نهيض الفتاة الطابخية برة

وأى معال ييته لم يهذب

كذا يعتلى عال ويفخر فاخر سما أول للعرب واعتز آخر
ففاضت هبات واستفاضت مفاخر وأعرض بحر من كنانه زاخر

يقاد إلى أمواجه كل مذنب

سحاب الحب طود الحبي ضيغم الوغى طغى سيفه فيمن تجبر أو طغى
وحكم فى الباغين أضعاف ما ابتغى وخير حكما فى الصهيل أو الرغى

أو البيت أوعز على الدهر مصحف

وأشعر فى العقب السنى احتجازه لملك تطيع الأرض فيه حجازه
وقيل تخير ما تروم نجازه فلم يقتصر واختار كلا فحازه

إلى غاية العز المديد المعقب

فنون احتفاء ضمها منه أوجد بأربعها حياه جد مجدد
ليمهد سعد للرسالة مسعد له البيت محجوجا وعز مخلد

وأجرد يعبوب إلى جنب أصهب

فمن حملت فى النسل منه أمانة تكفل تقديس بها وصيانة
فقد حق أنجاد له وإعانة ومن ولدته بنت عمرو عوانة

فما الدهر من أدنى مداه بأرحب

طغاه ملوك غنمه لا غنيمة وأغلالهم بيض الظبا لا رميمة

فشت أيمة فى مترفيهم وعيمة وخازم آناف العتاة خزيمة

فعاذوا بأخلاق الذليل المغرب

قسيم ثراء ذو ثراء مقسم عدا كل ظلام جلا كل مظلم

برأفة علام وسطوة معلم عظيم لسلمى بنت سود بن أسلم

لكل قضاعى كريم معصب

لهم سلف سمر العوالى وسامر وحاضر كبر للتكبر حاطر

يجار به خاش ويخشاه جائر ومدركة ذو النجح واليمن عامر

وخير مسمى فى العلى وملقب

له النسبة العظمى كما شاء سروه تلاقى بها طهر الغمام وصفوه

وللفخر منها ضؤه وعلوه تراءى مطلا إذ تقمع صنوه

ففار بقدح طائر لم يخيب

عموم ثناء لا يخاف مخصصا وأتلع فخر رد كيوان أوقصا

تواضعه أن يواطئ البدر أخمصا لام الجبال الشم والقطر والحصا

لخندف أن تتركب الأرض تركب

فلا غرو أن قادت لهم كل أمة سيوف انتقام فى أيامن رحمة

فهم سحب إمحال وأقمار ظلمة وإلياس مأوى الناس فى كل أزمة

ومر بهم فى كل خوف ومرهب

مبصرهم أمر المآب وقد أبوا وملهمهم أن يسنيروا وقد خبوا
ومذكرهم ما قد تناسوه إذ صبوا وزاجرهم إذ بدلوا الدين واستبوا

فأضحوا بلا هاد ولا متحجب

تخولهم بالوعظ صبحا وهدأة وفي السمع وقر لا يحسون نبأة
رمان نقي الجهال للحشر نشأة وحين دعوا بعلا ضلالا وجرأة

على ربهم واستعتبوا كل معتب

تمرس بالأعداء جذل حكاكه وأشرع للأوثان رمح سماكه
وقد قام من ملك الورى بملاكه وجاءهم بالركن بعد هلاكه

وقد كان فى صدع من الأرض نكب

سباه ألوا بأس شديد وقوة فألهمه نسيا بأغمض هوة
ليحفظ أمر الناس حفظ أبوة وما هو إلا معجز لنبوة

ويشرى وعقبى للبشير المعقب

أقام حقوقا للمقام المطهر وأشعر للتقديس فى كل مشعر
ووفق فى مرمى ومسعى ومنحر وحج وأهدى البدن أول مشعر

لها وفروض الحج لم تترتب

خصال بها قد حازت العرب خصلها تجالسها سمح الخلائق سهلها
وتصغى له عذب المقالة جزلها وكم حكمة لم تسمع الأذن مثلها

له إن تلح فى ناظر العين تكتب

تبسبح مرقى يبهر النجم سمته كما بهرت نظمي حلاه ونعته
وعن قنص يغنيه نهب يشته إلى قنص تنميه سوداء بنته
كلا طرفيه من معد لمنسب

عمائر لو لم يعمرها الأرض عطلت سقوها نوالا فاض أو مهجا غلت
فلولا انهمال السيب والسيف أمحلت وفي مضر تاه الكلام وأقبلت
مآثر سدت كل وجه ومذهب

تضايقت الغبراء عن فرط وسعها وأخملت الخضراء في عظم ربعتها
لصيد صناديد تسود بطبعها وجشن وكأثرن النجوم بجمعها
بأكثر منها في العديد وأثقب

تعجبت حتى لا تعجب مثله لصنوين قد حازا التساوى كله
فلما بدا سبق يريغان خصله هنالك أتى الله من شاء فضله
وقيل لهذا سر وللآخر اركب

إخاؤهما أخيتان تفاوتا وخولف بالذاتين حين تساوتا
وقيل لدى الإنصاف شتان تا وتا وكان شقيقى نبعة فتفاوتا
لعلم وحكم ماله من معقب

إن اشتبها في مآثرات رفيعة فما محلة في الروض مثل مريعة
ولا دجلة في الفيض مثل وقية وذلك أفسر الله يابن ربيعة
وتأسيسه للوحي فاطف أو ارسب

هما ما هما لا فعل إلا تكرم ولا كف إلا وهى تشقى وتنعم
سوى أن ذا غفل وذلك معلم وما منهما إلا حنيف ومسلم

على بهج إسماعيل غير منكب

فأريهم قد عدل المجد قسمه كما عدل الترييع فى الطيع جسمه
وكل ذكى صادق الصديق رجمه وقد سلم الأفعى نبجران حكمه

إليهم ولم ينظر إلى متعقب

ولما استقروا فى مكين قراره تطوف الجوارى حولهم فى جواره
بنصر قراه فى مقارى نضاره رأى فطنا أبدت لنا عن نجاره

وكان لنبع فاستحال لأثاب

فراستهم قد صح فى الكتب نقلها يبين بها عقد الأمور وحلها
كان لسان الغيب عنهم يملها وتلك علامات النبوة كلها

تشير إلى منظورها المشرق

فيا مادحهم أطنبوا إن وصفتم فما غاب عنكم فوق ما قد عرفتم
أت سنن سباقه إن قطفتم وقال رسول الله مهما اختلفتم

ولم تعلموا قصد السبيل الملح

وأقصد إشكال وأشكل مقصد وسد عليكم كل باب يسدد
ولم يبق إقليد سوى أن تقلدوا ففى مضر جرثومة الحق فاعمدوا

إلى مضر تلفوه لم يتنقب

ربيع ندى يغنى بأول رودة فمن ذا يجاريه بجود وجودة
وبدأة نعماء لها ألف عودة وسودة عك أمه من كسوة

وعدنان ينميها لأقرب أقرب

يرون الندى كالفرض حانت وقوته فلا معتب إلا ذراهم ييوته
ولا سبع إلا ظباهم تقوته وما سيد إلا نزار يفوته

ومن فاته بدر الدجى لم يؤنب

تمضر ترد غمر العطاء وعده تنزر ترد زهر الثناء وورده
فإن نزارا ما ارتضى النزر رفده قريع معد والذى سد فقده

متى يأتهم شعب من الدهر يرأب

مجلل وجه الأرض من نسل جلة فطرف وصمصام وسرد وآلة
ومترعها من أنجم وأهلة أبو أبحر الدنيا وأطواها التى

بها ثبتت طرا فلم تتقلب

يذيلون إن عنت لحرب لبانة نفوسا عن الفحشاء فيها صيانة
تخف إلى الداعى وثم ركانة ولم يكفه حتى أعانت معانة

بكل عتيق جرهمى مهذب

لقد بسمت دنيا طويل عبوسها بذى عزة يصفو عليه لبوسها
له انقاد آبيها وذل شموسها وجاء معد والسماء شموسها

وأقمارهم فى ذيلة المتسحب

قطار سقى حزن البلاد ووعثها ثوى مذحوى كسب المعالى وإرثها

بأفلاك عز دائب السعد حثها وبين يديه الأنجم الزهر بثها

على الأرض حتى لا مساغ لأجنبى

حمى عربه فالعجم لم يأمنوهم وصال بكفار العدى مؤمنوهم

له الأرض إلا جيرة أسكنوهم تقسمها أبناؤه وبينوهم

فلا فضل عن رمح وأجرد سلهب

وخطارة تخدى بأروع باسم ومطنوبة بين النجوم العواتم

ومنشورة فوق الجيوش الخضارم وزوراء مرنان وأبيض صارم

ورغف دلاص كالغدير المثوب

ولما ارتموا كالموج من بحر درهم وقد ضاق عن أقمارهم وسع جوههم

بنوا بالعوالى ما ارتضوا لعلوهم ولولا انفساح فى بلاد عدوهم

لضاقت خطاهم عن مراح وملعب

تضمن سرا من سليل مطهر فلقى صونا فى مغيب ومحضر

وأجبر من ناواه من متجبر وقدما تحفى الله من بخت نصر

به والورى من هالك ومعذب

قضى الله فى سكنى المفاز مفازه فأضفى عليه جاهه واعتزازه

وحلى بإفرند المضاء جوازه وجنبه أرض البوار وحازه

إلى معقل من حرزه متأشب

حباه من الإجمال أجزل حظه وخلصه من مغلظ القلب فظه

ونجاه حتى من تسمع لفظه وحل بأرمينية تحت حفظه

لدى ملك عن جانبيه مذب

يشيد له ركنى علاه ومجده ويقضى به حقى أبيه وجده

ولله سر فيه أن حان يسده فلما تجلى الروح أسرى بعبده

إلى حرم أمن لأبنائه اجتبى

أووا لمقام ما أعز مقيميه يجلون منه ركنه وحطيميه

وللشمل عقد يحفظون نظيمه وقد كان رد الله عنهم كلیمه

ليالى يدعو دعوة المتغضب

ثووا مأمنا إن صاونوه يصنهم ومهما استعانوا الله فيه يعنهم

إلى أن فشا حب التغلب عنهم وجاء بنو يعقوب يشكون منهم

ينادونه هذا قتيل وذا سبى

رجوا سلب الأمر الذى بيديهم وقالوا لموسى سر بجيش إليهم

والا دعاء فهو أدهى لديهم قال له : لا تدع موسى عليهم

فمنهم نبى أصففيه وأجتبى

هو المرتضى فى الأنبياء وحسبه سترفع قريباه ويشفع قربه

وفى بعثه هم تابعوه وصحبه أحبهم فيه رضى وأحبه

كذلك من يحبه يكرم ويحب

أفضلهم لما بلوت غيوبهم لتفضيل من ألفت فيه قلوبهم

وأنزع من شرب الصفاء ذنوبهم وأغفر إن يستغفروني - ذنوبهم

ومهما دعا داع أجبه وأقرب

رأهم كلیم الله مثل الأئمة تضاعف حسناهم لرعى الأذمة

ويوهب عاص للمطيع المسمت فقال: إذن فاجعلهم - ربي أمتي

فمن ترضه يارب يرض ويرغب

أفض بهم ممن طغى كل عروة وأعتد كلا فيك صحبي وإخوتي

يشدون أزرى أو يشيدون دعوتي فقال هم في آخر الدهر صفوتي

يفضون أعدائي ويستنصرون بي

خلال معد مالها من معدد فكم من تقى نفس إلى عز محتد

ومن بشر وهاب إلى هدى مرشد دعائم إيمان وأركان سؤدد

مضت بعلاها مهدد بنت جلعب

خواتم أنساب كدرة خاتم تقضت وفضل القوم غير مقاوم

وكم بعدها من معلم متعالم ومصعد عدنان إلى جذم آدم

بأبين من قصد الصباح وأحب

مناسب تشریف عدنا شبيهها إذا نبهوا ي شأو مجد نبيهها

ملاحقها فيه يبارى وجيهها ونهى رسول الله صد وجوهها

وكان لنا في نظمها شد ملهب

نهى فانتھينا واستراحت عواذل فلا نقلة عما انتقى عنه ناقل
بمحكم ذاك الحكم أسكت قائل والأفأد بن الهميسع مائل
ونبت بن قيذار سلاله أشجب

حديث من الأنساب ما كان مفترى تجمع فى نادية مفترق الورى
فحلوا حمى رجب الذرى سامى الذرى وواجه إعراق الثرى كل من يرى
وأسمع إسماعيل دعوة مكثب

بدورا تسام للتسامى تبادروا متى يتأخر سيد ساد آخر
تقضوا وكل بالقضاء مؤازر وقسام خليل الله يتلوه آزر
أغر صباحى لادهم عيهب

وكل عجاب عند آزر يلتقى مفجر صفو وهو أكر مشرق
ومطلع إشراق وليس بمشرق إلى الناحر بن الشارغ الغمر يرتقى
وللراغ ثم القاسم الشامخ الأبى

تولوا وكل سابق الفخر باذخ تألقهم فى دهمة الدهر شادخ
ومبناهم فى ذروة العز شامخ ويعبر ينميه إلى المجد شالغ
إلى الرافد الوهاب برك وطيب

فكم مصعب قاده طوع جنابهم وكم حملوا من مرسل فى إهابهم
فقد جاوزوا الجوزاء عند انتسابهم لسام أبى السامين طرا سما بهم
لنوح للكان العلى لمثوب

أثيب على عقل وفضل مكمل بتكثير نسل فى بقاء مطول

فيورك فيه من أغر محجل لإدريس ثم الرائد بن مهلهل

لقينن ثم الطاهر المتطيب

لقد فض عن سر العلى كل خاتم وأحصى علوما أرشدت كل عالم

لرغم العدى مادونه من مراغم إلى هبة الرحمن شيت بن آدم

أبى البشر إلا على لطين لأثلب

لمبدئنا عدنا وذل قيادنا فكيف افتخرنا - والتراب ولادنا

به عن قريب لحفنا ووسادنا فمنه خلقن ثم فيه معادنا

ومنه إلى عدن فسد وقرب

على فطرة نحيا ونبعث فى غد وبالسنة الغراء نهدي فنهتدي

برثنا إليها من غوى وملحد فنحن على دين النبى محمد

شفيع إلى استنقاذنا متأهب

إذا هال يوم الحشر واربد فجره تجلى رسول الله يشرق بشره

ونشر لواء الحمد يعقب نشره على موعده من ربه سيسره

ببشراه فى اليوم العبوس المقطب

لدار السلام اقتادنا بسلامة إمام لرسول الله أى إمامة

يشرفه الرحمن يوم قيامة ويعثه فيه مقام كرامة

وبشرى لأمن الخائف المترقب

شفاعة فوز توسع الكفر تعسه يقوم بها من شاد للدين أسه
وشرف نوع العالمين وجنسه وكل نبى لا يحدث نفسه

بها فهو منها فى تفاد ومهرب

بما خصه ينسى عموم البريئة برى طاعة هجر العصاة المسيئة
فيسلمهم طرا لحكم المشيئة إذا أمه جمع يقول خطيئتي

ونفسي نفسي ذاك فجنب

سوى المرتقى منهم لأرفع رتبة عليه صلاة الله قدر محبتي
يوئثم أكتاف قربي وقربة فيأتونه من بعد بأس وكربة

وقد ذهلت أم الصبي عن الصبي

ينادون يا أعلى النبيئين جانبا أتى كل عاص نحو فضلك راغبا
عسى الله ينجى من أوى لك هاربا فيسجد إعظاما ويضرع دائبا

إلى أن ينادى اشفع تشفع وتحب

فيقضى لنا من رحمة الله فى غد بتسع وتسعين اختباها لموعده
ويشمل أهل الحشر جاء محمد وتلفظ نار الله كل موحده

مردى بغشيان الكبائر ملهب

فيخرج أقوام من النار خفت قد اضطرخوا حتى أهينوا وأصمتوا
فهم حمم لكن على الذكر ثبتوا فيلقون فى نهر الحياة لينبتوا

نبات البزور فى حميل مجلب

فيأتى من الله البشير مبيضا لما اسود من أبشارهم ومعوضا

من اللهب الوقاد روضا مروضا ويلحقهم فضل الشفاعة بالرضى

كلوا واشربوا من خير أكل ومشرب

فكل امرئ من خالص العقد بحته يرجى لدى هول المعاد وبغته

مفازا بتشفيع النبی لوقته سوى أن قوما جعجعوا بأبن بنته

وحفوا به من قاتل ومؤلب

فقد كفروا فضل الرسول ومنه وضاع لديهم ما تلاه وسنه

أحين كساهم أمه روعوا ابنه وذادوه عن ماء الغفرات وأنه

لنهب العوافى من أسود وربرب

لدى النطف يا ويل لكل مطفف مصاب متى تسمع به الشمس تكسف

غدا بغيبهم من سبط أحمد يشتفى وأنحوا على أوداجه كل مرهف

طير وحزوا رأسه للتوثب

ولو قام يدعو واستغاث قديمه إذا لثاهم ذو الفقار هشيمه

ولكنه فى الخلد رام نعيمه كأنهم لما أباحوا حریمه

أباحوا حریم الديلمى المحرب

دهانا بشر معتد كل معتد وفجع خير الخلق فى خير سيد

وأهدى دجى ثكل لأثور ملحد فیا ربنا ماذا جزاء محمد

وواتره فى أهله كالكذب

لقوا في جحيم رجزه ونكاله كما أكلوا الهادي بنيه وآله
وسبطا غدا ربحانة في الدنى له وقاتله قد فات عن أن تناله
شفاعته أو أن يقال له أقرب

أثارت لهم ثارات عتبه ضغنهم وقلب تذكار القليب مجنهم
فمن لم يباشر طعنهم يخش لعنهم برثنا إلى الرحمن منهم وأنهم
لأجهل جهال وأخيب خيب

بنفسى رسول شرف الرسل أجمعا لتذكاره ذنبا نفوسا وأدمعا
ومهما عثرنا قال إحسانه لجا وإنا لنرضيه وأصحابه معا
ونأخذ بالإجماع دون الشعب

نرتب صحب المصطفى طوع وفقه ونحمل مسكوتا على حكم نطقه
ونرعى لذي سبق مزية سبقه ونعطى أبا بكر عتيقا بحقه
ونجى إلى حفظ النظام المرتب

عتيق بن عثمان معم ومخول لأوفر أقسام السعود مخول
بتفضيله نص أتى ومؤول وما قبل ثانيه من الناس أول
ولا مثل ثانى اثنين^(١) مدحة مطنب

تنحب تيم رهطه وفرقه وأنجبه محض العلاء عريقه
وسدد خير الأنبياء طريقه ومن يتقص صديقه ورفيقه
وصاحبه في الغار يشرق ويشجب

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿...ثَانِيَانِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾

ويحبط من الخيزات ما كان عاملا ويخبط بليل لا يرى النجم أفلا

ويدرج نفاقا بين جنبيه قاتلا ويخرج من الإيمان إن كان داخلا

وإن يأت يستعتب فليس بمعتب

لقد حار في الإسلام حصل سباقه فرباه سقطا عالما بأتلاقه

وأحياء حين ارتد أهل شقاقه مؤلف شمل الدين بعد افتراقه

وكاشف خطب الردة المتعصب

معادى الورى يبغى لأحمد خلة ومفنى القنا حتى تخلل شملة

ولا بس صديقية الله حلة . وقاتل قوم فرقوا الدين ضلة

وقالوا صلاة لا زكاة فذبذب

فلو لم يقدمهم - والجفون غضيضة إلى الصفح قدتهم صفاح عريضة

شفى ملة الإسلام وهى مريضة فقال الصلاة والزكاة فريضة

وليست صلاة من زكاة بأوجب

أللشرع تبديل وما بعد المدى بتفريقهم للدين أمهوا له المدى

أجاهدهم جهدى فهم أعظم العدى ومالهم - عندى - سوى سنة الهدى

أو السيف فليدن أمر أو ليعزب

كسا العرب - لما آمنت برد أمنه فزارته من سهل المزار وحزنه

لخوف يمانية وتأميل منه وكانت لسيف الله فيها بيمنه

حروب شفت من كل غل ونيرب

إمامته الصغرى أشارت وحسبه إلى صحة الكبرى فيودر نصبه

وفى قول "يا بى الله" زاد التنبيه إمام ينام المسلمون وجنبه

على حسك السعدان يجفرو ويتبى

رحيم السجايا يوسع الشرك نقمة سنا عدله لم يبق للظلم ظلمة

وشاد بنا الإسلام حكما وحكمة إلى أن جلاها كربة مدلهمة

بعارض موت للمنايا به حبى

تملك دنيا لم يعرها تلفتنا وساس البرايا ماضيا متشبثا

وجمع وحى الله فى الصحف مثبتا ومهد للإسلام حيا وميتا

فأعظم به من حول الرأى قلب

بحسنه سار الناس أرفق سيرهم ولكن عناه بعده خوف ضيرهم

فأوصى إلى الوافى بتسكين طيرهم وعلق أبصار العباد بخيرهم

وأمضاهم فى الله هبة مضرب

بأوقر فى ناد وأسبق فى مدى وأصعب فى بأس وأسهل فى ندى

وأرحم فى صعب وأبطش فى عدى وأربطهم جأشا وأطولهم يدا

وأثقلهم وطئا على كل مشغب

حسام عدى حاسمى عمر من عدا نجيب نفيل نافلى سلب العدا

سلالة خطاب خطيب من انتدى أبى حفص الفاروق عز به الهدى

وجاهر أهل الكفر لم يتهيب

رعى ملة رد الممالك ملكها وهامت به الدنيا فلم يعد فكرها
وزاد إلى عندل الخلافة نسكها وعز فبز الفرس والروم ملكها

ومن يعتصم بالله يغلب ويسلب

جبابرة الأملاك طرا له عنت فقسم أسلاب القصور التي ابتنت
وقسم أصلاب الجنود التي اقتنت ودوخ آفاق البلاد فأذعنت

وألقت إليه كل مسرى ومسرب

فكم نقد الأبطال نقد زيوفه وجهز رأيا مغنيا عن ألوفه
وبيض وجه الدين حمر زيوفه وأقنت حماة السرخ بيض سيوفه

فلم يبق إلا كل العس أشنب

فمن فضة في المعدمين يفيضها وذاهب أذهاب بأجر يعيضا
أفيئت عليه صفر دنيا ويضها وفضت كنوز القوم يعشى وميضا

بزرقي وحمري في نضار مشبب

فكسرى كسير تستباح سروحه وقيصير مقصور تهد سروحه
محاهم تقى تاق للخلد روحه فلما اقتضت وعد الرسول فتوحه

وقضى وأمضى كل هم ومأرب

وفي الدين والدنيا حنته إرادة وللمال الأعلى دعتة وفادة
وحتت له عدن وحانت سعادة أته - ولم يوجف عليها - شهادة

وإن تنأه يعنق إليها وينصب

تلقى حبيبيه بنفس تطهرت وجاور فى دار ركت وتعطرت
وأبقى عهدا للإمامة قررت وخيرها فى ستة فتخيرت

مبوا صدق بابن أروى المحبب

بذى مهجة عند النبی زكية وذى رتبة عند الإله عليه
وذى سيرة عند الأئام رضية بعثمان ذى النورين بعل رقية

إلى أم كلثوم فائل وأشب

رعى الله منه زاكى الخميم بره مواصلة الأرحام ترفع قدره
وتثنية الأصهار تجمع فخره وكان رسول الله يحمد صهره

وصهر أبى العاصى الرضى بعل زينب

هلال كمال والمعالي سماؤه هزير صيال بالدعاء احتماؤه
غمام نوال بالنضار انهماؤه صريح لأقداح النضار انتماؤه

إلى كل نفاح المكاسر صلب

زكا من أبى عمرو حضور وغيبة وفاز مزجيه وللعذل خيبة
له بالندى حب وبالنسك هيبة تلاقى عليه عبد شمس وشيبة

وإن يلق مزنا وافد الريح يسكب

وبويع عنه بيعة نال رشدها بأكرم كف أكرم الخلق مدها
لذلك أصفته البرية ودها إذا ما تلقته الملائك ردها

حياء مردى بالحياء مجلبب

تقدم بالإسلام أكثر صحبه ونال الرضى فى هجرتيه لربه

وأنفق فى الحسنى كرائم كسبه. وجهز جيش العسر - منفردا به

وقال لخليل الله سبرى وأهذب

أطاق خطوبيا ما ادعى الهضب طوقها بنفس إلى الفردوس عجل سوقها

فأبدت له الولدان والخور شوقها وفى مسجد التقوى المؤسس فوقها

مناقب وافقت إذن كل منقب

توقى يمين الصدق بوم حكومة بألف مئات وافتدى من خصومة

ونال من العلياء كل مرومة وسقى عباد الله من بير رومة

بأنجح من ماء الغوادر وأعذب

أزال مصون الصين بالخليل تلتقى وفى جمع إفريقية بالتفرق

فمزق شمل الكفر كل ممزق وكم أثر بباد وفتح مشرق

وآخر فى أقصى البلاد مغرب

تنازع قوم فى تلاوة أحرف فالزم صحب المصطفى كتب مصحف

ورد له القراء دون توقف وذاد عن القرآن كل محرف

على الله فى آياته مستكذب

رعى الدين رعى الهزبرى المنجد على حذو خليه من البر يحتذى

وسل كل حبر من بخارى وترمذ إلى أن أتاه صادق الموعد الذى

تقدم يوم القف بعد تجنب

فلما انقضى نسك به وعبادة تشوقت الحسنى له وزيادة

وقيل غدا صمه تفطرك سادة وأفضت به نحو الجنان شهادة

محصنة وافت به حش كوكب

نهى عن قتال - والقلوب كليمة وصحب الهدى بالذنب عنه رغبة

وصابر فى بلواه - وهى أليمة وسيقت إلى الرحمن نفس كريمة

على الحق فرى جلدها عض أكلب

هناك تحرى القوم فى الفضل نده فسد مكانا ذو المكانة عنده

وأغتنه شورى أن يجدد عهده ويبيع خير الناس لاشك بعده

ولو جوبوا فى الأرض كل مجوب

أبو الحسن المرضى من خير معشر لفاطمة الغراء بنت غضنفر

صفى وصهر وابن عم موقر على أبو السبطين صاحب خيبر

وعمر بن ود والوليد ومرحب

بغر المزايا مفرد دون شركة عفيف له فى الحرب أهول فتكة

سطا حاسرا والبأس أحصن شكة أقام على الأفلاذ أفلاذ مكة

بيطشة بدر كل نوح ومنذب

عدا عن قلب الصفو صف عديها وجلاهم أن يرتعوا فى حليها

ورواهم بالطعن قبل رويها فكم منطو من سرهم فى طويها

وقد كان كالجذع الطويل الشذب

على فضله تشنى الخناصر أولا وتثنى الطلى عجباً به حين يجتلى

بدا حالى الأسماء أو سامى الحللى لعبد مناف ذى الزعامة والعللى

أبى طالب أعجب به ثم أعجب

تبنى رسول الله فيما رويته فأنس محياه وأوحش موته

سما صيته فى العرب وامتد صوته مظل على آيات مكة بيته

ومقتبس من نوره كل أخشب

لكهف قريش حتف كل معاند لمقلها الواقى لها فى الشدائد

لسيدها الملقى له بالمقالد لحامى رسول الله من كل كائد

ومانه الفادى له المتعصب

يروع العدا حتى بطارق طيفه ويعطى مناه من مناه وخيفه

ولم يأل نصحا للغفارى ضيفه ليالى لا يأوى إلى غير سيفه

ولا ناصر يعدى ولا متحزب

وإذ جاء غاو للنيرة كائد وقى ربها ثم ابن عم معاضد

عشية يجفوه شقيق ووالد وإذ جل قرياه رجال أباعد

يطوف منهم بين صل وعقرب

أقام فروض الخمس وهو ابن خمسة وزاد لهدى انبيه تطهير عرسه

فصف لى رحماه وشدة بأسه له بأبيه الحق ثم بنفسه

علينا - وعقد الدين لم يتأرب

أفادت له دثر الخلال ظباته فأفنته فى أدنى الزمان هباته
فقد قبلت عند الركوع زكاته وقد سبقت أهل الصلاة صلاته

بسبع فكم فضل هناك موجب

وآخاه أعلى من تعمم وارتنى وشرفه بالبر فى كل متدى
وأحفى له البشرى وأضفى له الجدا وخص من الزهراء فاطمة الهدى

بأزكى نساء العالمين وأطيب

جربى والصحاب الغر فى شأو سؤدد فشاركهم فى مجدهم شركة اليد
وسوغ مجدا حازه حوز مفرد وفضل بالسبطين سبطى محمد

ولا سبط فى الدنيا فشرق وغرب

فأهلا بأدنى صاحب وأمته تنكب عن وعر السبيل وأمته
وسار على هدى الرسول وسمته ومنتزله منه على قرب بيته

كهارون من موسى فقرب وقرب

فكم كربة جلى عن الدين عضبه ولا مشهد إلا يشاهد قربه
ومن كنت مولاه كفته وحسبه وعهد إليه أنه لا يحبه

سوى مؤمن فاحكم على المبغض الغبى

إنحاء رسول الله أثل مجده فمن ثم يستملى تقاه وزهده
إمام هدى فى العدل أنفل جهده وسيان ترب الأرض والتبر عنده

وقدر عديم فى الحقوق ومترب

إذا جنت الظلماء طار هجوعه وقطعها قرآنه وركوعه
وأضواء من زهر النجوم دموعه ولما تولى الأمر زاد خشوعه

وطلق دنياه وقال لها اغرب

أبعد ابن عم للإمامة غاية وقد عم إجماع وخصت رواية
أما تنجلي عن أهل شك عماية وفي قتل عمار بصفين آية

وفي نابحات الركب ليلا بحواب

ندين بحب للجماعة جامع ونبذ مدحا في قواف بدائع
سوابقهم تكفى فحد عن منازع وكل إلى صفح من الله واسع

وجنات عدن فاطرح قول مجلب

سلوا المستحلين الذين أحلهم حرورية ذات الحرور أحلهم
تلقاه فيهم صادق الوعد قبلهم وإن قتال المارقين وقتلهم

لأعظم برهان وأكبر موهب

كفاه نقابا واستمعها مناقبا إشارته للنفود ينعت خاضبا
وإنشاده بيت الزبيرى - عاتبا وأخباره عن ذى الشدية غائبا

بخبء فلما قتلوا ظهر الخبى

إذا رامت الأقوال حصرا لفعله فقد عاجلت من عاج عد رمله
ولم تقض بعض الحق بالمدح كله وما تبلغ الأوصاف غاية فضله

ولكن كل الصيد فى جوف قرهب

دهتنا فأهوال المعاد معادة خبيثة خب من مراد مرادة

تولى فأحزان العباد عبادة إمام سعيد صبحته شهادة

بضربة أشقى العالمين وأخيب

ضياء لميراث النبوة قد خبا فأظلمت الآفاق شرقا ومغربا

سكينة أرض أذهبت يوم أذهبها فأعزز على الإسلام ما هبت الصبا

بشيب كريم من شواه مخضب

إلى مجده عجا بأبداع مدحة ومن رشده فزنا بأوسع منحة

وعن فقدہ أبنا بأفجع ترحة وفى منتهى الشورى الزير وطلحة

وسعد تناهى كل فخر ومنقب

أكابر أعلام على العلم نقبوا قضى الله أن حبوا لديه وإن حبوا

قد انتخبوا للسابقات وأنجبوا فذا ابن عبيد الله طلحة موجب

وهذان مفديان بالأم والأب

فمنهم مجاب الأدعيات برحمة وأسمح معطاء وأشجع بهمة

فلم لا نقضى العمر فى رعى حرمة وذا صنو صديق وذاك ابن عمه

وذلك خال من يشابكه ينجب

حلا صفوة الأبرار أصفى تحبى هواهم من الدارين ذخرى ومكسبى

وبالمدح فيهم نحو ربي تقربى وفضل ابن عوف والأمير الرضى أبى

عبيدة فضل من يغالبه يغلب

بإنفاق ذا يفنى تليد وطارف وذا زاهد لم تستمله الزخارف

فحسبى وصفا أن تحير واصف وعاشر أهل الطود والطود راجف

عريق هدى فى الجاهلية مثقف

تسامى عن الدنيا الدنية همة ولا مشهد إلا سطا فيه بهمة

وإن غاب عذرا يعط أجرا وقسمة ويأتى أبوه فى القيامة أمة

وقد كان فى الدنيا كعنقاء مغرب

هم عشرة حازوا الكمال ضريبة وحلوا بفردوس قصورا رحبية

وواحدهم ما زال يلقي كتيبة وكل لفهر أو قصى صليبة

يقارع منهم كل نبع بأصلب

مفلل هندی منيل هنيذة حلاه كسلسال بصفو شهيدة

فكيف لنا عن حبهم بعض حيدة وأين بنا عن حمزة وعبيدة

ليوم كفاح قاتم اللون أكهب

فكم قد أباحا من نفوس منيعة بمشرعة تحمى أجل شريعة

وقاطعه سلت لأهل قطيعة هما بطشا فى الحرب بابنى ريعة

فعادا نهابا بين ناب ومخلب

هما هضبتا ثهلان أرسى وقاره فذا ملجأ الخاشى وذا مستجاره

فمن قل حامية وقل غراره فذا أسد الله المنيع ذماره

متى يلقيه ليث الخفية ينشب

هما أوحداها فى مساع نبيهة فذا خير بذال لنفس نزيهة
وكعب إياد فى أياد بدهية وذا بهمة لا يثنى عن كريهة

متى يدع يوما للردى يتوثب

وللأب صنو ما أبر وأمجدا عميد قریش مستغاثا ومجتدا
ومن ورثت أعقابہ الملك سرمدا وذو الصوت والصيت البعيدين فى الندى

وفى الحرب مهمى يطعن القرن يضرب

يعانق أعطاف القنى دون أبهة ويعرض سمعا عن تسمع بهة
وينده ذا حرب ويحبو بندهة أبو الفضل ماوى الفضل من كل وجهة

ومفضى سماء الفخر من كل مسكب

أنيس رسول الله - والسمر أشرعت يفرق عنه ما هوارن جمعت
ويثبت فردا والضراغم صرعت دعا فى حنين دعوة فتقطعت

بنو قيلة من محضر ومخبب

سقى حرميها والحفاظ يهجه فذا بدعاء للسماء عروجه
وذا بزال تعتفيه حجيجه مقبل ظعن الحى أوفت حدوجه

فناهيك من سبط المفاصل شوذب

مضوا بمواض للنفوس مفتية وأرواح صدق فى الوغى مستميتة
ففى الله قد فازوا بأشرف ميتة وفى ذى الجناحين الشهيد بمؤتة

فضائل مهمى يحسب الرمل تحسب

صفى لخير الخلق أحفى معاشر ومشبهه من بين صيد أكابر
بخلق بهاء أو بخلق مآثر أفض عباد الله قلبا لكافر

وأرافهم بالمؤمن المترهب

عمومة خير الخلق قدوة وأقمار أم الفضل للفضل صفوة
وستتها ما مثلهم قط إخوة وللحبر عبد الله والبحر دعوة

علت وانثنت مقبولة لم تحجب

جمال لدى النادى ثمال لدى الندى روى هادى الأحكام أو حكم الهدى
وفاق شيوخنا - والصبا بعد مرتدى وفقه فى التأويل والدين فاغتندى

إماما متى يقرع به الخصم يكب

بنو هاشم سادات دهر بهم حسن فلولا هم لم تبق دنيا ولم تكن
إذا الحرب جاشت فالحصون لهم حصن ومولا هم زيد الكتائب منهم ان^(١)

تماء وإن تنسب قضاة ينسب

تفرس قبل العبث صدق علامة فآثر ملكا من نبى كرامة
على رفعة فى قومه وزعامة أبو الحب فى حجر النبى أسامة

فاحب بهذا ثم هذا وأحب

مدحت رسول الله من شغف به وأحبت أهليه بفضلة حبه
وأجللت أبرارا تساموا بقربه ومن ذا الذى يحصى فضائل صحبه

وإن يستمد البحر يتزف وينضب

(١) فى هامش المطبوع: «حرصا على الوزن والقافية فى الشطر الرابع من هذا التخميس وحتى يستقيم الوزن فى الشطر الخامس. أثرتنا تقسيم كلمة (انتماء) فجاءت هكذا».

وفت لرسول الله صفقة كفهم فهم معه فى الخلد فى نعم طرفهم
كما معه خاضوا الردى يوم زحفهم هم صفوة جاء الكتاب بوصفهم
فما بعده فضل من المتأدب

فواخرجلى لولا عميم ارتياحهم فضحت سهى نظمى بشمس التماحهم
وأغرقت أوشالى ببحر سماحهم بلى إن فى أوصافهم وامتداحهم
رضى الله فازهد فى المديح أو ارغب

فكم فى معد من معد ذخائر وفى يعرب من معرب عن مفاخر
صحابة خير الخلق خير معاشر وكم فيهم من مستميت مهاجر
سريع إلى أقرانه متلب

وناشئ سرور فى سراوة أبطح وداعى نزار صالح السر مصلح
وذى يمن سمح الخلائق مسمح وندب من الأنصار غمر ممدح
محيا مبكى بالقلوب مندب

بخزرجه أو أوسه - وهما هما أعز الهدى لما حماه حماهما
فكم أنجبا ممن يشيد علاهما كسعد أبى قيس وقيس كلاهما
يمانى صلاء كاليمانى المشطب

يقود المذاكى سابغات ظلالها وقد قد من خد العزيز جلالها
وصاغ بتيجان الملوك نعالها تحامت قریش بأسه إذ سما لها
بأرعن فى قتل الكمأة مدرب

بتكريمه دان الأكنارم أجمع وغيرته فى الله تحمى وتمنع

ونار قسراه بالكباء تضوع وقال رسول الله - برا به - اسمعوا

لسيدكم فى محفل متلجب

من المستحقين الرضى عند ربهم برائق جدواهم ورائع حربهم

تخير الهادى نقيبا لحزبهم من الخزرجيين الذين سمت بهم

خئولته فى كل مجد منصب

حوى الشرف السعدان فاسمع مقاله أرى مرتع السعدان لا نبت طاله

فللساعدى العز يطفى ظلاله ولابن معاذ سيد الأوس ماله

حديث لعمر الله غير مكذب

فحبى من طلق المحيا وسيمه ملائك عدن هزة لقدومه

أقلت سريرا سار فوق نجومه مناديله قد أنبأت عن نعيمه

وكم شاهد ينبيك عن متغيب

قضى من جهاد الشرك كل لبانة وحكم فى طاغين أهل خيانة

فوافق حكم الله وفق إعانة وأبدى اهتزاز العرش عن ذى مكانة

يقال له أنعم وأرض غير مشرب

تحمل عبء الحق دون شكية وجاد بجمال ثم نفس زكية

فعين التى تبكيه غير بكية من الأوس فى جرثومة مالكية

دراية فادراً بها الناس تغلب

ومنهم سماك خام عنه المصالت وتواب صدق فى السلاسل قانت

وذو المنطلق الحكيم ينميه صامت وعن لنا قبل المعاذين ثابت

وحارثة سهل بكل ورحب

شجاني فراق للأحبة باغت فجسمى به خاف وروحي خافت

فنيث وودي فى ذوى النصر ثابت ميامن منهم أخطب الناس ثابت

وكان متى يستأسد الخطب يخطب

رأهم توقوا كل إثم وحبوبة فزادهم تقوى وتجديد توبة

وشد عهدا فى حضور وغيبة وقام وقد حل الرسول بطيبة

بأسير قول فى البلاد وأذهب

وقال خلعنا اللات خلع لبوسنا سنشرب فيك الموت ملء كئوسنا

ونعرض عن أقمارنا وشموسنا وقال متى نمنعك منع نفوسنا

وأموالنا ماذا لنا من ثوب

حلت عندنا فيك الوغى وهى مرة فماذا توفى أمة بك برة

إذا حان للخلق الذى باد - كرة فقال خلود فى الجنان ونضرة

فقال رضينا فادع من شئت واندب

وحنظلة بشراه فى فور سهمه لقد ظهرت بالسفح طاهر جسمه

ملائكة نعم الأساة لكلمه وحارثة قال الرسول لأمه

بيدر وقد قالت لعبرتها اسكب

رويدك من فرط الأسى والتأسف أيكى لمحبور بقصر مزخرف

ومتكىء فيه على خضر رفرف أفيقى أفيقى إن حارثة لفى

نعيم جنان للحسيفة مذهب

لهم قدم للصدق بالشهب تحتذى وسل بمعاذ أو أخيه معوذ

هما جدلا عمرو العدا دون منقذ ومنهم معاذ أعلم الناس بالذى

أحل لهم وبالحرام المجنب

خدود طباهم زيتها أسالة وعند قناهم للقلوب رسالة

وأنفسهم فوق الصفاح مسالة وعند معاذ بن الجموح بسالة

وشدة بأس كالهزير المغضب

رأى قلبه روض الجنان منعما فخاض له نهر الصوارم خضرمما

نضى لبسه لما أتى الله محرما عشية ألقى درعه متقدما

إلى الموت لم ينكل ولم يتذأب

مساميح لم يسمح زمان بمثلهم إلى نقباء بالمناقب حلهم

فمنهم أبو أيوب مدره حفلهم ومنهم أبى اقرا الناس كلهم

وآتاهم لفظا ونطقا بأصوب

نجار من النجار فى بيت سؤدد وتهتئة بالعلم فى خير مشهد

وسعاه من شاد السماء فقد هدى وزادته إخباتا قراءة أحمد

عليه فأى الدمع لم يتسرب

ولا قيل إلا هاب أبناء قيلة حموا عند خوف آثروا عند عيلة
لهم حكم أوزت بمولى سخييلة ولا بن حضير آية ذات ليلة
وقد غشيته ظلمة ذات هيدب

تهجد بالقرآن ليل سهاده فأبصر مثل السحب فوق سواده
بها سرج كالنجم عند اتقاده وخاف على يحيى مجال جواده
ولا ضير فيها فاتهد واتل واعجب

وذو الرأى كاد الكفر فى قلب عفت وذو العين ردتها أجل يد شفت
وذو السيف أعطاه الجريد فأرهفت وذو النور عباد بن بشر تكشفت
دجاء بنور من عصاه مشغب

أماجد سادوا كابرا إثر كابر إذا خطبوا فالشهب أدنى منابر
سل الوحي عنهم تلف أخبر خابر وساجل بعبد الله ثم بجابر
ونط بهما من شت تفضح وتعب

لجيبين فى العليا أطلا وأعرضا بكفيهما صمصامة النصر تنتضى
لقد سلكا نهجا من البر مرتضى فذاك أظلته ملائكة الرضى
بكل جناح بارد الظل أهدب

أب طاهر وابن تقيل سلبه كلا الفاضلين استوجبا الفضل كله
فذاك شهيد - كرم الله نزهه وهذا رسول الله مستغفر له
متى يطلب الغفران يرض ويطلب

لهم خلق إقدام وخلق سجاحة وألسن إفصاح وأيدى سماحة
فكم من صباح أخلجوا بصباحة وحسبك فى الهيجاء بابن رواحة

وعند القوافى رائع النظم مستبى

مفيد سيوب عن سيوف مفيتة ورابط جأش فى كماء هبيتة
وناطق شعر فى حروب صموتة وثالث آساد الشرى يوم مسوتة

ولا خطو إلا فوق أزرق قعضبى

بشأويه من قول وفعل حوى المدى جرىء على الأبطال مثنى وموحدا
ومبتدع للتنظم إن راح أو غدا قلله من حلو الشمائل إن حدا

ركابا أكلتها التائف تطرب

سخى يعيد الأسخياء فداءه كفى يعد المشرفى رداءه
محب يلبي كل روح ندائه لذلك ما استدعى الرسول حداءه

وقال له حرك بنا العيس تنهب

ونعم ابن جحش مشبه الخال رفعة أشم العلى إذ نال فى الله جدعة
ومن أهل بيت بادروا الحق سرعة وإن جليبيبا وقد حس سبعة

لمسعر حرب فليبك ويندب

بنفسى شهيد شاهد الحق صنعه تعجل رضوان إلى الخلد رفعه
عروسا بحور تحسب الدم رده تولى رسول الله فى اللحد وضعه

على ساعديه أى نعش ومركب

حلا كجنى نحل بماء غمامة نسينا ابن سعدى عندها وابن مامة
فيا روضها ضاحك بثغر كمامة وأهلا وسهلا بعد بابن حمامة

بلال الملقى فى الإله المعذب

بسابق حبش سائق لهم غدا بحافظ أوقاف الفروق تعبدا
بمن تذرف العينان مهما تشهدا بأبيض ما تحت الضلوع من الهدى

متى يطلع فى ظلمة الليل تنجب

وأسمر ما للطعن سدد لدنه وأزرق ما فوق المعاطف سنه
وأحمر ما فى الروح كسر جفنه وأخضر ما تحت القباء كأنه

حسام متى ينفج به القرن يتبب

أضاعته كفار أبى الله حفظهم وحضوا عليه فاغتنى الخسر حظهم
فسبحان من أعمى عن الرشده لحظهم يسومونه شركا فيجلب غيظهم

بتوحيده لله من كل مسجلب

بترجيعة ذابت نفوس الخلائق فكم ساق للتوحيد قلب منافق
وكم شاق للفردوس أهل الحقائق وكم من شهيد فى القيامة صادق

له من مدى صوت الأذان المهيب

وفى غزوة والكفر رهن بشته شجى بأذان طال عهد بوقته
وذكر عصر الوحى من بعد فوته وكم عبرة بالشام فضت لصوته

وأحضرها من بعد طول تغيب

وقالوا رجونا حاجة منك فاقضها فلما دنا وقت الصلاة بفرضها

وقيل له أذن بشامك ترضها بكى عمر والمسلمون بأرضها

لذكرى حبيب بالبقيع فيثرب

قضى فى جهاد واجتهاد مردد شرى تعباً يفنى بروح مخلد

فلا بن رباح كل ربح مجدد ولا بن سلام عند عيسى وأحمد

وموسى مكان المخلص المتقرب

بما جعل التوراة حومة حومه تحقق بعث المصطفى قبل يومه

فأعرض عن عدل القبيل ولومه ولما أراد الله إخزاء قوميه

وكانوا جميعاً بين عاند وكذب

تجنب إفك الفاسقين ومينهم ودان لرسل الله لم يلو دينهم

إلى أن رأى ختم الجميع وزينهم وكان قديماً لا يفرق بينهم

بنور من التوراة عن كفرهم خبى

فلما اهتدى وارتاب أهل اليهود ووقف منهم بين شكر لسؤدد

وبين اغتياح أن دروا أنه هدى طوى عنهم إيمانه بمحمد

وقال متى أظهره أبهت وأسبب

وقال له أقبلت للرشد قابلاً فأخف عن الأقوام شخصى عاجلاً

وكن لهم عنى - فديتك - سائلاً فلما انتهوا فى مدحه قام مائلاً

يجادلهم فاستقبلوه بأزيب

ومن فقهاء الهجرة المدنية مفاتيح الاستفتاح عند السرية

وحلبة سبق للجنان العلية وما لابن مسعود ولا ابن سمية

وسلمان والندب الغفارى جندب

وسالم قرآن به ائتم كبرهم وداعى اذان حين يطلع فجرهم

ومصعب الدارى لله درهم من الفضل لا يحصى فحسبك ذكرهم

ولا فقس خضر البحار بمخضب

فله ما اتقى وأنقى صحيفة مراتبهم تعلو السماء منيفة

وليلائهم تحيا رجاء وخيفة وأيام سيف الله أردت حنيفة

وسلت عليها كل أبيض مقضب

سيوف عنا قسرا لها كل قسور وأسكت ناقوس بصوت مكبر

وعوض من قس خطيب بمنبر وبشر منها آل كسرى وقيصير

بملك شعاع مستباح مخرب

سبى الفرس من تيجانهم أى حلية وقسم روما بين قتل وجزية

ومن كل أهل البغى فاز ببغية وأى كفور لم يرعه بفتية

تسقى عداها بالزعاف المقشب

عراق وشام والحجاز به فدى متى تأتها تسمع لدى كل مشهد

قضى خالد فينا بفتح مخلد وما هى إلا بطشة من مؤيد

متى يقعد الآجال تنقد وتصحب

صحاب رسول الله في نعت ناعت كأشجار طيب في أغصن منابت
 سما فرعها والأصل أرسخ ثابت وإن أبا زيد وزيد بن ثابت
 لفي شامخ سامي الذؤابة أرقب
 هما أحكما وحى الإله وأتقنا هما جمعا حفظا ولفظا محسنا
 لقد بهرا فيما أسرا وأعلنا وفي آية تتلى كما نزلت لنا
 وتبيين فرض إن تعداه يذهب
 بصحب الهدى أبدى الزمان اختياله غداة غدوا إجماله وجماله
 فلوا أومئوا للأفق نالوا هلاله ولو نيط فخر بالثريا لناله
 أبو طلحة عفوا ولم يتصعب
 بسراء أو ضراء أنفق ماله وفي السر والإعلان واصل آله
 وصيحته في الحبيش هدت جباله ولما تناءى البر عن أن يناله
 بغير سخاء عن نضيد مركب
 وأيقن أن النفس تردى بفضنها وأن سماح النفس من غير منها
 بفتح للأبرار جنات عدننها سخت نفسه عن بيرحاء وحسنها
 وعن كل قطف مائل العطف مرطب
 وكم قباد مقبدا عرابا سوابقا صهلن رعوذا واختطفن بوارقا
 فأهلكن ذعرا كافرا ومنافقا وجاء صهيب سابق الروم سابقا
 يقود إلى دار الرضوى كل أصهب

وغالبه عن هجره آل غالب فاعطى القنى يرجو لقاء الأصحاب

فقيل ربحت البيع يا خير كاسب وأن أبا هر لألزم صاحب

وكلهم من حاضرين وغيب

مبشر دوس حين لاذوا بركنه مسددهم حتى أنابوا بيمنه

حظى لدى المختار إن زار يدنه لزيم رسول الله فى شبع بطنه

فسيان إن يعرق وإن يتنغب

وعى الذكر فى تهجيريه وبكوره وواصل حفظا باتصال حضوره

وبالبسط للشوب استقى من بحوره فأض بعلم يستضاء بنوره

متى يعترض من دونه الصعب يركب

وزان ابن عم زانه النور عمه فقال عسى فى ذيل سوطى تمة

لئلا يظنوا مثله بى ملمة وكان لدوس حين أسلم رحمة

بها استنقدوا من حاجم ذى تلهب

ونجل حوارى حرى برعيه بميلاده سارت أكابر حيه

وتعسا لقوم كبروا عند نعيه ولم يأل عبد الله فى حسن هديه

سموا إلى فاروقه فاسم وأقرب

فبورك من خاش لدى العرش روايته روت بأحلى المشارع

وكم نفعتنا عنه آثار نافع له كل برهان من الفضل ساطع

ورؤياه رؤيا أفصحت بالمغيب

ولابن ربيع فى أعز المشاهد مقام سما عن مخبر أو مشاهد

وبالنصر وصى غائباً بعد شاهد وفى أنس بن النصر أعدل شاهد

ببريمين عن يقين تحوب

تنسم عدنا يوم تمحيص شهد فقد ولم يعرف بعضو سوى اليد

وقال كذا فليتدب كل مهتد ولابن أخيه الندب خدام أحمد

فضيلة مختص لأياته ربي

فطوبى له من طاهر القلب شهمة مصيخ إلى قول الرسول بفهمه

ومكمل ما يلقى له ومتمه أبى حمزة أكرم به وبأمه

فكم لهما من حظوة وتقرب

ومن سابقات نيرات آياتها ومن مكرّمات مكرّمات رواياتها

ومن حسنات أعليت درجاتها ومن دعوات خلدت بركاتها

طباهم وأرضاهم بها خير مطبى

وكعب علا كعباً على رغم شامت ومنطقه للحرب أنعت ناعت

وتيب عليه توب أروع قانت وحسان حسان الحسام بن ثابت

يقول وروح القدس للقول مجنب

محا بامتداح المصطفى طيب نومه وفى الله لم يحفل بمولم لومه

وفى محفل الإنشاد أحفل بيومه له مجده فى قومه ولقومه

به رتبة زادت على كل مزرب

وصوت ابن قيس إذ يرتل حزبه مزامير داود به تتشبه
وخبب خباب قلم ينس ربه وحاطب لحم أعظم القوم ذنبه
وحشوا عليه الموت من كل محطب

وفرقة هدى أفرقته وهددت وكانت له زلفى عن النار أبعدت
وأعذار إخلاص لدى الله مهدت فنهتهم عنه الرسول وقد بدت
مقاتلة للشائر المتوثب

ولقاه بشرى ساميا قدر أهلها أوى كل ذى سبق لوارف ظلها
وفى محفل رداه حلة حفلها وصددهم عنه بيدر وفضلها
وشداته بالسهمرى الملب

تحلى خبيب لللقى خير زينة وماذا تلقى عاصم من سكينه
غداة حمته الدبر أى أمينة وفاز حرام يوم بشر معونة
بقطر دم يستن من كل مشخب

منهم وقور السميت سكن طيره عويمر القاضى الذى شاع خيره
فللعادل مثواه وللغزو سيره وعالم سر ليس يدره غيره
حذيفة لم يمدل ولم يتسرب

وحسل أبوه يوم أخلص غزوه سيوف إلى الغايات لم يثن شأوه
وإن ابنه بر إذ اختار عفوّه وإن ابنى العاصى هشاما وصنوه
على نهج إيمان منير مصوب

وفى اليمن الإيمان ليس بمختف وإن عديا للمحامد مقتف

وزاد قديما للقدوم المشرف وإن جريرا خير ذى يمن لفى

ذؤابة مجد باسق متهيب

لبهجة مرآه بيوسف قدوة وجقت له لولا الديانة نخوة

ببسط رداء فيه عز وحظوة وتمت له من خاتم الرسل دعوة

تقلب منها تحت عقد مؤرب

تلقى وصيات الرسول بوعيه وروح من طاغوت دوس وغيه

براشد منحاه وصائب رايه وأصحمة أرضى الإله بسعيه

وذاد عن الإيمان كل مخيب

راى الحق عن بعد بناظر قلبه وعاض من التثليث توحيد ربه

مقرا برسل الله طرا وكتبهم وكان ملاذا للرسول وصحبه

وبان وبانوا عنه غير مؤنب

أصاخ لوى وهو باك موله وأعظم أمر المصطفى وأجله

وساق مطيعا مهر رملة كله وصلى عليه أحمد شرفا له

وأوصاله فى النعش لم تتحجب

هنيئا لزهرياعوا تحت سرحة وفازوا من النور البهى بلمحة

ونالوا من الدارين أشرف منحة وناهيك من فخر الأشج بمدحه

يقصر عن إيجازها كل مهضب

لهم سؤدد قد أعجز الشعر وصفه ومن ذكرهم زهر تأرج عرفه

كمامته طرسى وبالسّمع قطفه وقرة نالت خاتم الوحي كفه

وفاز بها فوز السعيد المنجب

محا شوقهم عن ناظري طيب نومه وإن هواهم فى الحساب ويومه

يفى بصلاة المتقى وبصومسه وما فضل أصحاب النّبى وقومه

لمن رام إحصاء له بمحسب

هو البحر والخضر البحار تمده هو النجم من يبغي النجوم ترده

هو القطر لا يرجى من القطر عده ولكنه ذخّر وأجر أعده

وأجعله أمانى وحصنى ومهرى

خير الورى أخلصت دون وليجة وسبطيه أرثى ذا شجون مهيجة

وأصحابه حبوا بكل أريجة وأزواجه والفضل فضل خديجة

وكل له فضل المصون المطيب

ثنا أمهات المؤمنين محسن فهن أمان للورى وتيمن

لهن على النسوان فضل مبین ولكنها كانت وما كان مؤمن

سواها فنقر فى البلاد ونقب

تقى الله فى أعلى المراقى أجلها حبت وفرها تحوى المفاخر كلها

وحيا سلام للسلام محلها وسبط الهدى منها لفاطمة لها

فحسبك من فضل بفضل مرجب

شهيدان ذا جهر أو ذاغيبة قضى هما قرتا عين لأشرف مرتضى
 وريحنتاه من زمان به أضما هما سيدا الشبان فى جنة الرضى
 وخير كهول الأرض شرق ومغرب
 وفى حجرات المصطفى فصل منطق وآيات برهان وحكمة^(١) متق
 أذاع بها الزوجات غربا لمشرق وعائشة صديقة لمصدق
 ملئ من التقوى رءوف مؤدب
 وكم سنن تقضى صحائح طرقها بتفضيل أم المؤمنين وسبقها
 على العلماء استدركت وبحقها مبرأة جاء الكتاب بصدقها
 وتكذيب إفك الفاجر المتكذب
 ومثلها جبريل وهى بخدرها على الشرف الباهى فأعظم بفخرها
 ولم يأت وحى قط فى لحف غيرها ومات رسول الله ما بين سحرها
 إلى نحرها توديع راض مقرب
 ولا زوج للمختار إلا مبرة على الغير خصتها من الله أثرة
 شمائلها نسك وصون وطهرة وكل لنا أم هنالك برة
 على برها تحبو الرجال وتحتبى

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ...﴾ (٢٤) [الأحزاب].

وخير أناس يقتدى بهداهم سراة رأوا خيسر الورى ورآهم
فحسبهم فضلا به وكفاهم صحابة صدق من يطر بحماهم

فنحن براء منه باعد وجنب

أيا صاح دعنى من ثراء وعيلة ومل بى إلى صحب الهدى خير ميلة
أحبر ثناهم كل يوم وليلة وعرج على الأنصار أبناء قيلة
وبغضهم كفر فعذ وتحب

كفانى عما بالقوافى قفوته ثناء عليهم فى الكتاب تلوته
أمانى وإيمانى بهم قد رجوته كرام لهم محيا الرسول وموته
تأسوا وواسوا من جواد ومحرب

تناهوا من الإيثار فى كل نصرة إلى أن قروا أرواحهم كل شفرة
حضور يدر غيب عند بدرة يحبون من وافى إليهم بهجرة
ويلقاه منهم كل سمح مرحب

صحاب رسول الله فى الأرض أنجم ليرشد حيران وينجى مظلّم
بهم فى الدنا نحمى وفى الدين نعصم ساقطع عمرى بالصلاة عليهم
وأدأب فى حبى لهم كل مدأب

تفتح نظمى فى الطروس خميلة فأهديت أزهارا بدمعى بليلة
عساها أتت من عثرتى مستقيلة إليك رسول الله منها وسيلة
تناجيك عن قلب بحبك مشرب

فؤاد بلفح البعد عنك تضرما يطالع بالفكر الخطيم وزمزما
ويلثم شوقا مستداك المكرما يزورك عن شحط المزار مسلما

ويلقاك بالإخلاص لم يتنكب

إلهى ذنوبى كالجبال وأكبر ولكنها فى جنب رحماك تصغر
ومالى سوى مدح الرسول مكفر ترجيت فضلا منك يعفو ويغفر

وراجيك فى الدارين غير مخيب

انتهى التخميس الرائق الأبيات، للخالصة الباهرة المناقب والآيات.

وهذا البيت الأخير - وهو قوله: (إلهى ذنوبى... إلى آخره) زاده
المخمس كله ليكون الختم به. ولم يزد بيتا غيره.

ولا خفاء أنه - رضى الله عنه - زاد هذه القصيدة بتخميسة حسنا،
عاملنا الله وإياه بالزيادة والحسنى، وأنال جميعنا المقام الأسنى.

ومن بديع نظم ابن أبى الخصال المذكور آنفا، قصائده النبويات، التى
عارض بها قصائد حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فى رثاء المصطفى -
ﷺ، وقد خمس أبو عبد الله بن حبیش المذكور الحسانيات، ومعارضتها
الخصالية، وأفردها بتأليف، رأيت أن أذكر ذلك بجملة، وكتب فى أوله ابن
حبیش المذكور ما نصه:

الحدائق النيسانية، والطرائق الحسانية، تشتمل بحول الله - على تخميس
المراثى الحسانيات التى طبقت بإحسانها ما تحت السبع الطباق، وعلى تخميس
معارضتها من الخصاليات التى فازت فى أساليبها بخصل السباق، تأليف
محمد بن حبیش، انتهى.

قال - رحمه الله : تخميس الأولى من الحسانيات الأربع ، التي عمرت
من الإحسان أبهى مربع ، محجية في انتساقها عن الغير ، مرتبة على مساقها
في السير ، ترثي سيد الخلق وخاتم الأنبياء ، فتبكي بشجوها سكان الأرض
وملائكة السماء ، صلى الله عليه صلاة تتناهى في تكريمه وإرضائه ، وتقضى
من حقه ما عجز العالمون عن قضائه ، وعلى آله المنتخبين ، وأهل بيته المطيبين ،
وسلم تسليمًا ، ورضى الله عن صحبه الذين بدروا دعوته تصديقًا ، ومهدوا
ملته تغريبًا وتشريقًا ، ومن الله - سبحانه - يرجى العون والتيسير ، فهو نعم
المولى ونعم النصير .

أبقى وجود النبوة تفقد بأرواحكم جودوا فما الدمع يحمد
أما هدمكم ناعى الهدى وهو ينشد بطيبة رسم للرسول ومعه

مبين وقد تغفر الرسوم وتهمد

مضى المرشد الهادى لحكم وحكمة وآلت الإسلام أدهى ملمة
فما تخلع الأيام أوثاب ظلمة ولا تمحى الآيات من دار حرمة

بها منبر الهادى الذى كان يصعد

وفضفاض آلاء وضافى مكارم ومهبط وحى من إله العوالم
إلى خاتم الرسل السراة الأكارم وواضح آثار وبقى معالم

وربع له فيه مصلى ومسجد

بأمورة القصواء قد كان خطها ونظم من در الهداية سمطها
نبى كساها الفخر تضيفه مرطها بها حجرات كان يتزل وسطها

من الله نور يستضاء ويوقد

مبادئ هدى تبلغ الخلد غايتها يقربها من قلب ذى الصدق نأيتها

وفى الملاء الأعلى تنشر رأيها معارف لم تطمس على البعد آيتها

أتاها البلى فالأى منها تجدد

ولم لا أوفيتها من الحب جهده وقد حازت الفضل الذى فاق عده

إذا زرتها بالقلب أحمد وقده عرفت بها رسم الرسول وعهده

وقبرا به وراه فى الترب ملحد

لقد خددت خدى دموعا توردت صحائح آثار لأحمد أسندت

وآيات وحى فى المحارب رددت ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت

عيون ومثلاها من الجفن تسعد

صنوف الوجود الجم غيبا ومحضرا من الشهب والأفلاك والمزن والورى

وما أبصرت عيني وما ليس مبصرا يذكرن آلاء الرسول وما أرى

لها محصيا نفسى فنفسى تبلد

فلا جسم إلا حلة السقم يرتدى ولا روح إلا رائح غير مغتدى

ولا نفس إلا ذات وجد مجد مفجعة قد شفها فقد أحمد

فظلت لآثار الرسول تعدد

وقد حبرت من كل مدح حبيره وقد عبرت عما ينمى عبيره

بنظم كما وشى النسيم غديره وما بلغت من كل أمر عشيره

ولكن لنفسى بعدما قد توجد

سرت مهجتي تبغى الجنان وخلدها فما يمت إلا المدينة وحدها
وقد نالت الأوطار لم تتعدها أطالت وقوفا تذرِف العين جهدها
على طلل القبر الذى فيه أحمد

فطوبى لنفس بالرسول تمسكت لقد عطرت بين النفوس ومسكت
وما الفوز إلا مسلك فيه أسلكت فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
بلاد ثوى فيها الرسول المسدد

فيا خاتم الرسل المكين المقربا وأعلى الورى قدرا ونفسا ومنصبا
تقدست قبل الكون تحبى وتجتبى وبورك لحد منك ضمن طيبا
عليه بناء من صفيح ينضد

لفقد رسول الله لم يسل مؤمن فللكرب أرواح وللندب ألسن
لقد شق يوم فيه للوحى مدفن تهيل عليه الترب أيد وأعين
هناك وقد غارت بذلك أسعد

إمام لرسل لم يزالوا أئمة غدا للعلأ بدءا وللبعث ختمة
وجلى عن الآفاق ظلما وظلمة لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة
عشية عالوه الثرى لا يوسد

نعموا قمرا كم ضاء عنه نديهم وودهم لو قبل ذاك نعيهم
وزادوا غليلا إذ من الدمع ريهم وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم
وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

قد اغتبطوا بالوجد يغلون سومه فهم بين طرف شرد الدمع نومه
وسمع عن السراء واصل صومه يكون من تبكى السموات يومه
ومن قد بكته الأرض فالناس المد

مصاب دهانا بالدواهي الفواتك فبدل أنوار الضحى بالحوالك
وعاض دموعا بالدماء السنوافك وهل عدلت يوما رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد

فيا ربنا ضاع العباد فصنهم وقد ضعفوا عن صبرهم فأعنهم
ليوم بعاد قرب الحين منهم تقطع فيه منزل الوحي عنهم
وقد كان ذا نور يغور وينجد

فأين زمان رافل فى قشيبه يهجة مرآة ونفحة طيبه
إذ الوحي من رب الورى لحبيبه يدل على الرحمن من يقتدى به
وينقذ من هول الخزايا ويرشد

تحرى حراء راعع الليل ساجدا وأظما هجيرا يترك الماء واقدا
وبالوحي أضحي مرشد الخلق راشدا إمام لهم يهديهم الحق جاهدا
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

رحيم بأهل البر يرفع قدرهم شديد على الكفار يخفت زأرهم
حيب إلى الزوار يشبع وفرهم عفو عن الزلات يقبل عذرهم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

إذا جاش أعداء محاهم بنصلة وفي المحل يغنى عن غمام ببذله
وإن جلت الجلى تجلت لأجله وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
فمن عنده تيسير ما يتشدد

أقام لأرباب الديانة قسطهم فقد فرسوا فرس الأعادى وقبطهم
فترجو رضاهم أو تحاذر سخطهم فبيناهم فى نعمة الله وسطهم
دليل به نهج الطريقة مقصد

نصيح لخلق الله غيبا ومشهدا موفيهم النعمى موقيهم الردى
مبصرهم فى اليوم شافعهم غدا عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

أباد الأعادى - والدعاء سلاحه فبالرعب قبل الحرب عم افتتاحه
قوام البرايا بأسه وسماحه عطوف عليهم لا يثنى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

وقد صيروا الأملاك بالقهر أعبدا وردوا جميع الأرض طهرا ومسجدا
وبدر الهدى يلتاح من وجه أحمدا فبيناهم فى ذلك النور إذ غدا
إلى نورهم سهم من الموت مقصد

ولما غدا المختار بالحق صادعا وبلغ تنزيلا وبث شرائعا
دعاه تقاه للجنان مسارعا فأصبح محمودا إلى الله راجعا
بيكيه جفن الرسائل ويحمد

فحان لشمس بالظلام التفاعها وزلزل من شم الروابي يفاعها

وحق لأصلاد القلوب انصداعها وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها

لغيبة ما كانت من الوحي تعهد

وكادت قلوب أن تحس اختلافها لفقدان من أعطى هداه ائتلافها

وعادت ربوع الأمن تشكو مخافها قفارا سوى معمورة اللحد ضافها

فقيد ييكيه بلاط وغرقد

تغيرت الأشياء حزنا لبعده فيا ظلمة الدنيا ويا نور لحده

بكاه مصلاه الأنيس بورده ومسجده فالموحشات لفقده

خلاء له فيها مقام ومقعد

أرى الكعبة العيا لمنعاه أجهشت بنوح وأدمت خدحا حين خمشت

وهمت بتمزيق الستور فأدهشت وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت

ديار وعرصات وربيع ومولد

معا أحمد من كان يعبد صخرة ومن طلبوا أن ينظروا لله جهرة (١)

ومن عبدوا كهلا وعذراء برة فبكى رسول الله يا عين عبرة

ولا أعرفنك الدهر دمعك ينفد

ونوحى على من شاد أشرف ملة بوكنافة هطالة مستهلة

هى الغيص لكن لم تطق رى غلتى ومالك لا تبكين ذا النعمة التى

على الناس منها سابغ يتغمد

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿...فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ...﴾ (١٥٢)

فيا أمة الدين الحنيف المكمل نبيك والمعلی لمنصبك العلي
تنقل للفردوس أحفى تنقل فجودى عليه بالدموع وأعولى
لفقد الذى ما مثله - الدهر - يوجد

ومالى لا أفنى وأفنى تجلدى وأجعل مبكاي المورد موردى
وثوبى أكفانى وبيتى ملحدى وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد

أحب إلى رب وأحفى بأمة أبر بميثاق وأرعى لحرمة
أحن لسؤال وأسدى لنعمة أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
وأقرب منه نائلا لا ينكد

وهل أبصرت عينا مقر وجاحد بأعلى على من أحد ذى المحامد
وأكثر إعجازا وخرق عوائد وأبذل منه للطريف وتالد
إذا ضن معطاء كان يتلد

وأسمى سناء حين أسرى إلى السما وأبهى سنا مهما ارتدى وتعمما
وأمدحى لجيش بالحصاة إذا رمى وأكرم صيتا فى البيوت إذا انتمى
وأكرم جدا أبطحيا يسود

وأوصل أرحاما وأقطع للطللى وأصفح عن جان وأصبح مجتلى
وأشجع مقداما وأسخى مؤملا وأمنع ذروات وأثبت فى العلى
دعائم عز شاهقات تشيد

وأصدق بالقرآن لله مخبئنا وأنطق برهاننا به الخصم أسكتنا

وأهدى لأواب وأسطى بمن عتنا وأثبت فرعنا فى الفروع ومنبتنا

وعودنا غذاه المزن فالعود أغيد

كريم نمته من لى كرامه شريف علا فى الأنبياء مقامه

ضياء مساعيه ووحى كلامه رياه وليدا فاستتم تمامه

على أكرم الخيرات رب ممجد

على كل بر أن يذوب بلهفه ويغرق بالطوفان من فيض طرفه

على مرسل عم الأنام بعطفه تناهت وصاة المسلمين بكفه

فلا العلم محبوس ولا الراى يفند

لشواه قصد الأجر تزجى الركائب بعلياه عند الحشر ترجى الرغائب

صباح به تجلى لكفر غياهب أقول وما يلقى لما قلت عائب

من الناس إلا عازب العقل مبعد

لدى البعث أرجو فوزه بلقائه وقبل فنائى وقفه بفنائه

مديحى مدى عمرى حيس علائه وليس هواى نازعا عن ثنائه

لعلى به فى جنة الخلد أخلد

إلهى قضيت الذنب فاقض اغتفاره بفضل شفيع قد رفعت فخاره

لعلى غدا والحب يدنى مزاره مع المصطفى أرجو بذاك جواره

وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

تخميس الحسانية الثانية، وهى لروض الرضى جانية

سجع الحمام عن الحمام مترجما فالرزه قد أبكى ملائكة السما
رد الكرى عدما ودمعك عدما ما بال عينك لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الأرمـد

نجم الهدى والرشد أمسى هاويا وأعاد روض العيش محلا ذاويا
فسقام جسمك لا يصيب مداويا جزعا على المهدى أصبح ثاويا
يا خير من وطئ الحصى لا تبعد

مولاي كم نعمة أوليتنى وأجلها سنن بها حليتنى
لا صبر فى رء له خليتنى وجهى يقيق الترب لهفا ليتنى
غيت قلبك فى بقيع الغرقـد

يا ويح من صدع المصاب صفاته فيود لو أمسى الضريح كفاته
ويقول عن شوق يرى ما فاته بأبى وأمى من شهدت وفاته
فى يوم الاثنين النبى المهتدى

لما أقـيم الدين واتبع الهدى دعى الحبيب إلى النعيم مـخلدا
فأجاب واختار الرفيق المصعدا فظلمت بعد وفاته متبلدا
متلدا يا ليـتنى لم أولد

فقدوا كمال الأنبياء وزينهم فقد استطاب رجال طيبة حينهم
لم لا وبعد الوصل قاسوا بينهم أقـيم بعدك بالمدينة بينهم
يا ليتنى صبحت سم الأسود

أضحى إلى الفردوس عنا راحلا فغدا الموصول الكرامة واصلا

يا ليتنا معه نال النائلا أو حل أمر الله فينا عاجلا

فى روحة من يومنا أو من غد

ما عيشنا بعد النبى المجتبى يا ليت يوم الحشر منا قربا

من غير أن نخشى ذنوبا حجبا فتقوم ساعتنا فنلقى طيبا

محضا ضرائبه كريم المحتد

يا من أسمى معدا فخرها يا مطلع الآيات يشرق بدرها

يا منجيا - والنار يلفح جمرها يا بكر آمنة المبارك بكرها

ولدت محصنة بسعد الأسعد

قمرا أفاد الشمس باهر فضلها صبحا جلا للأرض ظلمة جهلها

بدءا لتقوى الله خاتم رسلها نورا أضاء على البرية كلها

من يهد للنور المبارك يهتد

بمزاره يمحو إرشاد غينا وقلوبنا سبقت إليه مطينا

وبحفظ سنته نميز تقينا يارب فاجمعنا معا ونبيننا

فى جنة تشنى عيون الحسد

سدد لنهج محمد أعمالنا آمن بجاء محمد أوجالنا

يسر بفضل محمد آمالنا فى جنة الفردوس فاكتبها لنا

يا ذا الجلال وذا العلى والسؤدد

كل الورى فى حزننى المتدارك إنسا وجنا ثم زهر ملائك
قد ساعدوا جفنى بدمع سافك تالله أسمع ما حيت بهالك
إلا بكيت على النبى محمد

بحر الرزية شط مدرك شطه لا جفن إلا ناثر من سمطه
درا دهاهم كـربهم عن لقطه يا ويح أنصار النبى ورهطه
بعد المغيب فى سواء الملحد

فى آل قـيلة بالوداد أصرح وبنتهى يمنى إليهم أجنح
يا ويحهم ومصاب أحمد يفتح ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا
سودا وجوههم كلون الإثم

ويقول قائلهم فيعظم فخره حل الرسول بنا وطاب مقره
فلنا مهاجرة ومنا نصره ولقد ولدناه وفينا قبره
وفضول نعمته التى لم تجحد

كنا كتائبه وبيت كتابه والقائمين بخطبه وخطابه
وغدا نكون الصفو من أحبابه والله أكرمنا به وهدى به
أنصاره فى كل ساعة مشهد

تمجيد أحمد فى العوالم أفشه وأرقم به طرس الوجود ووشه
وأغد ولو أضحى صدك بنعشه صلى الإله ومن يحف بعشره
والطيبون على المبارك أحمد

تخميس الحسانية الثالثة، وهى بالسحر الحلال نافثة:

أسناء بالناس دهر كان أنقهم وأوسع العهد نكثا حين واثقهم
يا من ثوى بين أبرار ورافقهم نب المساكين أن الخير فارقهم
مع النبى تولى عنهم سحرا

بان الرسول فأشجانى مواصلتى من غيث عاجلتى؟ من غوث آجلتى؟
من ذا يصحح لى فرضى ونافلتى من ذا الذى عنده رحلى وراحلتى
ورزق أهلى إذا لم يؤنسوا المطرا

من نرتجيه فيولينا صنائعه من نجتديه فيصفينا مشارعه
من نقتفيه فيهدينا شرائعه أم من نعاتب لا نخشى جناده
إذا اللسان عتا فى القول أو عثرا

أوحى له الله بالإسلام يشرعه وفى غد لمقام الحمد يرفعه
وفى العصاة بتنويه يشفعه كان الضياء وكان النور نتبعه
بعد الإله وكان السمع والبصرا

الأمن بين مغنائه ومسجده واليمن بين مثانيه ومسنده
كنا مواتا فأحيانا لمولده فليتنا يوم واروه بملحده
وغيبوه وألقوا فوقه المدرا

كنا سبقنا فجرعنا كئوس ردى فالحين أسهل من يوم به فقدا
أوليتنا حين ذبنا إثره كمدا لم يترك الله منا بعده أحدا
ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا

أبناء قيلة لا تسأل بشكلهم لو أن خير الورى يفدى ببذلهم
جادوا بأنفسهم طرا وأهلهم ذلت رقاب بنى النجار كلهم
وكان أمرا من الرحمن قد قدرا

لم يعهدوا مثله رزءا لمثلهم حالت حلاهم به من فرط خبلهم
وفرقت حادثات جمع شملهم وأقسم الفىء دون الناس كلهم
تخميس الحسانية الرابعة، وهى على المنار نازعة،

وفى أحلى المشارع شارعة

الحمد لله حمدا دائما أبدا سمى بأحمد من فى الغيب قد حمدا
خير العباد وأهدى الأنبياء هدى أليت ما فى جميع الناس مجتهدا
منى ألية بر غير إفناد

يمين صدق لأصناف التقى جمعت وبالخلوص لدى الرحمن قد نفعت
ومن خمولى غداة الحشر قد رفعت تالله ما حملت أنثى ولا وضعت
مثل الرسول نبى الأمة الهادى

الله أهدى له أركى تحيته وطهر السر من صافى طويته
وصاغ من قدسه عظم سجيته فما برا الله خلقا من بريته
أوفى بذمة جار أو ببيعة

ولا غمام يروى من سواكبه ولا هلال تجلى فى كواكبه
ولا صباح يجلى من غياهبه مثل الذى كان فينا يستضاء به

مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

يا سيد الأنبياء السادة العظما يا لهفنا لمصاب فيه قد عظما
حق انتشار نجوم وانفطار سما أمسى نساؤك عطلن البيوت فما
يضربن فوق قفا ستر بأوتاد

ترحة لم تدع للمسلمين جلد وفجعت أمهات المؤمنين فقد
أصبحن بين جوى حزن وبرح كمد مثل الرواهب يلبسن المباذل قد
أيقن بالبؤس بعد النعمة البادى

قسمت قلبى على الأشجان والفكر تقسم الطرف بين الدمع والسهر
لم تبق بعدك لوعاتى ولم تذر يا أفضل الناس أنى كنت فى نهر
أصبحت منه كمثلى المفرد الصادى

كمل تخميس المراثى التى بهر ما اشتهر من إحسانها، وأجاد ما أراد
منطق حسانها، فصلى الله على المراثى بها ملء سمواته وأرضه. ورضى الله
عن الواقى بأبيه وجده وعرضه، يتلوها إن شاء الله تعالى - تخميس
معارضاتها من قصائد ابن أبى الخصال، المتصلة بما قبلها أبداع الاتصال،
سلكت مهيع المخلص الوافى، وعضدت المتقدّمات عضد القوادم بالخوافى
وحذت بالغافقية الأندلسية، حذو النجارية القدسية - فى المعانى والقوافى،
وتخميس اثنتين له أيضا، فاض بحرهما فيضا، وهما فى الرتبة سنيتان، وفى
النسبة حسنيتان، فجملة الخمسات أربع يثريات، صحا بياتها بثوب الثواب
مشملة، وست مغربيات، سحاياتها بصوب الصواب منهملة، تلك عشرة
كاملة، ولموصول القبول بفضل الله آملة، والله تعالى ينفع بكل ما أخلص
لوجهه من قربة، ويفرج بها فى الدارين كل كربة.

قال جامع هذا الموضوع أحمد بن محمد المقرئ - وفقه الله - سقط من
هذه النسخة التي رأيت - القصيدتان الحسينيتان، فلذلك لم نكتبها بعد الأربع
الآتية، ولنعد إلى كلام هذا الشيخ فنقول: قال - رحمه الله ورضي عنه:

تخميس الخصالفة الأولى - والله ولسوله المنة الطولى

أفق عن هوى سعدى فما الشيب مسعد وقرب مطايا للخطايا تبعد
وحت ركابا فوقها الركب ينشد بطيبة آثار تحج وتقصد
ودار بها لله نور مـخلد

فويح المعنى بين هم وهمة يشوقه مشوى ثواب ورحمة
ومرقى دعاء من نبوة عصمة ومهبط جبريل بوحي وحكمة
يبينها للعالمين محمد

وحق لنفسى أن تطيل غمومها وقد شوقتها لو أطالت قدومها
ديار تباهى من سماء نجومها ومظهر آيات كأن رسومها
على ما محامنها البلى تتجدد

فيا حسرتا من للكسير بنهضة ومن لى من برق العقيق بومضة
أبعد النوى عن طيبة طيب غمضة وفى مسجد التقوى تأرج روضة
عليها من الفردوس ظل ممد

أتروى الصدى من عذب رومة شربة أتقصد من غرب به الدار غربة
معاهد تقديس بها النفس صبة يفاوحها طيب الجنان وتربة
تبوأها من جنة الخلد أحمد

عراص على الأحراس محروسة البقا بها أربع الهادي تشوق إلى اللقا
ومسجده البر الذي اختار وانتقى ومنبره الأعلى على ذروة التقى

وجذع له فيه حنين مردد

ومشهد أبرار لدى أحد قضت وخندق أحزاب رآته فقوضت
ومدفن صحب أرضت الله وارتضت ومولد إبراهيم حيث تمخضت

به أمة مثوى كريم ومولد

أجل أب فاق الأنام فخاره يسر بخير ابن زكى نجاره
ولم لا يحوز المجد سام مناره وموقعه من نفسه واختياره

له اسم خليل الله فخر مشيد

معالي رسول الله للدهر زينه وأبكى الورى حتى الحياشح عينه
أساه لنجل حان للخلد بينه وإعلان بالحزن تدمع عينه

له رحمة والنفس ترقى وتصعد

تحفيه بالأصحاب أعلى لهم يدا وأصهاره الصديق تم مقصدا
لألفتهم دنيا وأخرى وملحدا ومبنى على - والهدى يالف الهدى

بفأطمة نور يقييد

مصلاه يزهى من مناجاة ربه ومجلسه الأسمى يغص بصحبه
كما حف بدر ليل صحو بشبهه ومولد سبطيه وريحان قلبه

مكانهما من عاتقيه مهد

معالم هدى نورها قد تألقا بحيث دعا المختار للبر والتقوى

وحيث التقى بالروح أشرف ملتقى وحيث ارتقت منه أمانة مرتقى

يقوم بها حبا لها ثم يسجد

وحيث حباه الله نصر لوائه فمكنه فى الأرض بعد اصطفائه

بما جل من أسمائه لسماؤه وحيث بنى بالطيبات نسائه

بعصمته الوثقى وجبريل يشهد

حلى أمهات المؤمنين جهاتها تنسى شموسا فى سماء سماتها

بما راق من آياتها وإياتها ومثلى كتاب الله فى حجراتها

يقمن به الليل - والناس هجد

ديار لأمر الله فيها إدارة وللوحى بشر بينها وبشارة

إلى حجر فيها أضواء حجارة وتمت لأصحاب الكساء طهارة

من الله يحييها الكتاب المؤيد^(١)

مدارس قرآن يزكى حضورها موارد إحسان تفيض بحورها

مطالع رضوان تجلت بدورها معاهد إيمان تألق نورها

ففى كل أفق جذوة تتوقد

بأحمد أزرت بالنجوم أنافة وأحسن صحب الهدى فيها خلافة

إلى أن جنت عين التكامل آفة وكانت أمانا ثم عادت مخافة

فزائرها فوق الردى يتوسد

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

فيا ليت أجفاني غمام لحلها ومن نفسي مسرى نسيم لنخلها
ولكن إذا بليتته عيني بوبلها فيا أيها الدار التي حق أهلها

على الناس طرا دائم ليس ينفد

لقد أغرقتني بالدموع وأعطشت صنوف صروف في ضيائك أغطشت
وامعان بؤسى في معانك قد فشت لقد درست منك المعاني وأوحشت

وكان إليك الدين يأوى ويصمد

لئن عاق جسمي سقمه ووساده وأودى بطرفي دمه وسهاده
فقلبي يشق البید والشوق زاده ذكرك ذكرى من يهيم فؤاده

بقربك لكنى على القرب مبعد

تصورت عصرا في علاك تألقا وكل القرى مثل القرى لك تنتقى
ولا ملك إلا انقاد أو قيد موثقا ومثلت لى فى بهجة الدين والتقى

وأمر رسول الله يعلو ويمهد

إذا انصرف الجبار عنك بجبهه سميعا مطيعا فى رضاه وكرهه
وإذا نصر المختار فى كل وجهه وإذا برقت نورا أسارير وجهه

فزحزح قطع الليل والليل أسود

وبدلت الأملاك عزا بذلة لمبدل أنصاب بمنصوب قبلة
أطاعت له إنس وجن بجملة وألقت إليه الأرض أفلاذها التى

تحل بها عظمى الأمور وتعقد

لقد أمن الإيمان بعد ارتياعه حلول رسول الله دار امتناعه
وفتح التي كانت أحب بقاعه وغزو تبوك ثم حج وداعه

ولم يبق تبسين ولم يبق مشهد

ذكرتك إذ حبابك عيش بصفوه وإذا سحب الإسلام حلة زهوه
بما راق من حج الرسول وغزوه ومثلت لي والمسلمون بشكوه
فرائصهم من روعة البين ترعد

فلا قلب إلا مستطار مشوق ولا طرف إلا ينهمى ويورق
ولا بدر إلا هو يمحي ويمحق وقد جلل الدنيا ظلام مطبق
يخال به على الناس سرمد

وكان الوري قد سرهم نيل سؤلهم وقد أملوا محو المدى بنصولهم
ففاجأ رزء قاطع عن وصولهم فما راعهم إلا وفاة رسولهم
وكل يرى أن الرسول مخلد

رجوا مكثه يعطى البلاد هدونها شهيدا عليهم مدة يلبثونها
إلى أن يوافوا جنة يدخلونها وقد ذهلوا أن التي يقرءونها
إذا جاء نصر الله للموت مرصد

فأقصد سهم الرزء كل الخلائق وعوض في الآفاق صبح بغاسق
وشابت من الولدان سود المفارق وودع جبريل وداع مفارق
ولا عود يستثنى ولا وحى يعهد

صحاب الهدى قد ريع بالين روعها تفيض مآقيها وتذكى ضلوعها
وأجفان أهل البيت طار هجوعها وأم أبيها مسبلات دموعها

كما انحل من سلك فريد مبدد

قال جامع هذا الموضوع - وفقه الله - أراد بأم أبيها مولاتنا فاطمة بنت
مولانا رسول الله - ﷺ - حسب ما ذكره صاحب الاستيعاب عن جعفر بن
محمد الصادق - رضى الله عنه - أنه قال - كانت كنية فاطمة بنت رسول الله
- ﷺ - أم أبيها.

رجع إلى التخميس:

درى صلوات الله ملء نديه بحب لها فيه زهت بحليه
ولو خيرت لم تبق بعد مضيه فأودعها سرا بكت من نجيه
وثنى بسر فانشئت تتجلد

وصدع قلب الصلب تصديع قلبها ليتم كريميها وترويع سر بها
وقد كاد يدينها النحيب لنحبها وقد أعلنت عند الرسول بكربها
لكرب أبيها وهو بالموت يجهد

تنادى وفوق الخد مشور جوهر أيا أبتاه كيف لى بالتبصر
أيا كربتاه من حمام مقدر فقال لها: كفى دموعك واصبرى
فما بعد هذا اليوم كرب يعدد

وسكن من إقلاقها لمصابه بأن لها قبل الألى فى حجابيه
ذهابا إلى الفردوس إثر ذهابه وبشرها من قرب ملحقها به
ببشرى حديث صادق لا يفند

قضى أنها سباقة أهل بيته للقياء فارتاحت لمسموع صوته

وسرت بسدل كم بكت خوف فوقه فيا من أرى حيا يعزى بموته

فيرضى كأن الموت خلد مؤبد

لسيدة النسوان لم ألف مشبها قلت عيشها بعد النبی حبها

بتول أبت خدرا سوى قعر تربها عن الدنيا إلى قرب ربها

وشحا عليها من حياة تنكد

وتهدئة كي لا تشور شجونها وتسلية كي لا تفيض شئونها

وحفظا عن البقيا لعصر يخونها ولطفًا من الله العظيم يصونها

وباب الزرايا المستكنات مرصد

دنت رحلة الهادي وحم شتاتها وفاطمة الزهراء زهر صفاتها

غدت بضعة منه فحانت وفاتها ولو أنها امتدت طويلا حياتها

لشرد عنها النوم ليل مسهد

وآلها تبديل بشرى بغمها وحرب بنى حرب بها بعد سلمها

وإفشاء قوم إحنة بعد كتمها وغصت على قرب بثكل ابن عمها

وفقد شهيد حزنه ليس يفقد

مواخي رسول الله الخلائق وناصره عند اعتكار المآرق

وحامل تحقيق وحامي حقائق أقام كتاب الله في كل مارق

يقربه في رعمه وهو يجحد

لقاسطة أجرى من القسط عادة وناكثة أفنى وأبقى سيادة

وباغية سلها أتبغى زيادة فقيض أشقى الناس يدنى سعادة

لمن هو بالإيمان أولى وأسعد

درى ربها إشفاقها وحنانها فترها عما يروع جنانها

ولو أزممت شيئاً لذمت زمانها فكيف بها - والله يأبى هوانها

بمصرع سبط أول وهو مقصد

على روحه تعطى اللهى دون عدة ويسجد فى منعه أطول سجدة

فكيف رضى رب كريم وجدة وقد جرعت حنفة كف جعدة

بمكرع سم مجه فيه أسود

فما أزهر الزهراء ليلة أقبرت بكل جليل من رضى الله بشرت

وباللحد عن إلحاد قوم تسترت ولو حدثت عن كربلاء لأبصرت

حسينا فتاها وهو شلو مقدد

سليل مبيد الكافرين بعبه وسيد شبان الهدى وبحسبه

ومن لم يقس بعد الشقيق بمشبه وثانى سبطى أحمد جعجعت به

عماة جفاة وهو فى الأرض أوحد

فما لذكاء بالدجى ليس ترتدى وللمزن لم يمطر بجمر وجلمد

وشر عبید جدلوا خير سيد ولم يرقبوا إلا لآل^(١) محمد

ولم يذكروا أن القيامة موعده

(١) إلا - بكسر الهمزة وتشديد اللام - العهد.

ولم يعلموا - والظلم يمهل مدة بأن حقوق الله تزداد شدة

وأن أذى المختار يكتب وأن عليهم فى الكتاب مودة

لقرباه لا ينحاش عنها موحد

أترجو من الهادى شفاعته غدا عبيد حباهم عتقه فانشئوا عدى

وأحيائهم لكن أذاقوا ابنه الردى فيا سرع ما ارتدوا وصدوا عن الهدى

ومالوا عن البيت الذين بهم هدوا

ترى بعد هذا العثر يرجى انتعاشهم وقد سلبت أرواحهم ورياشهم

أسود دهاهم من كلاب هراشهم فجلى عن ماء الفرات عطاشهم

وروى منهم ذابل ومهند

حسين العلى والمجد والبأس والندى ترائبه فى الترب قد رضها العدى

وأطفاله عيضت بنهد تنهدا فيا أوجها شامت وتاهت عن الهدى

أهذا التحفى منكم والتودد

قدحتم زنادا تحرقوه بسقطه وقابلتم حق الإله بغمطه

سفكتهم دما هام النبى بلقطه وترتم رسول الله فى قتل سبطه

ويؤتم بنار حرها ليس يبرد

أتعصى أمور للنبي مطاعة أتغزى بنوه والشغور مضاعة

شققتم عصا الإسلام لم تبق طاعة فما لكم عند الشفيع شفاعه

ولا لكم فى كوثر الخوض مورد

سميكم تسقيكم السم لا السمي ومرجانه شبت لكم مارجا حمى
ودعوتكم تدعو بكم لجهنم لعمرى لقد غادرتكم كل مسلم

على مضض برح يقوم ويقعد

ملكتم وكنتم للنبوة حسدا فأصبح مالى الكفر فيكم مجددا
أطعمم ضلالات وعاصيهم الهدى ونغصتم المحيا وأرضيتم العدا
فأنتم لغير الله جند وأعبد

تغيب يوم الطف عضبى ومشرعى فما يبدى إلا رثائى وأدمعى
مضوا دون توديع فيا نفس ودعى ويا كبدى إن أنت لم تتصدعى
فأنت من الصفوان أقسى وأجلد

ولو لم أنح إلا اشتياقا إليهم فكيف وقد جل المصاب لديهم
سباهم عُبَيْد أبى من يديهم فيا عبرتى إن لم تفيضى عليهم
فنفسى أسخى بالحياة وأجود

أيهدم بين الوحي بعد التشيد أيؤذى حبيب الله وهو به اهتدى
أيجزى على نصح بشمل مبدد أتنهب الأيام أفلاذ أحمد
وأفلاذ من عاداهم تتودد

فسويل يزيد حين رادت هناته ففاضته من روض الجنان جناته
ولو أصبحت ملء الملا حسناته أضحى ويظمى أحمد وبناته
وبنت زياد وردها لا يصرد

أتى المصطفى يهدى لنهج رشاده فجلت غسوة أولا فى عناده
وثانية فتكا بأهل ولاده أفى دينه فى أمنة فى بلاده

تضيق عليهم فسحة تتورد

بغى ابن بغى للغواية محتذى على كل راكى النجر أروع أحوذى
بأزكى لبان للنبوة قد غذى وما الدين إلا دين جدهم الذى
به أصدروا فى العالمين وأوردوا

بنو الأدعياء الأحرىاء بلعنهم أحالوا على الأبرار أسياف ضغنهم
وردوا بنى الهادى دريئة طعنهم ينام النصارى واليهود بأمنهم
ونومهم بالخوف نوم مشرد

عميتم عن الأنوار وهى جلية غضضتم من السادات وهى علىة
لتنفذ فيكم شقوة أزية وما هى إلا ردة جاهلية
وحق قد قديم بالحديث يؤكد

مصاب سما عن كل صبر وأسوة فحسبى شكوى مسى وغدوة
لمن فى يديه كل جـول وقوة ألهى على بسطى هدى ونبوة
جرى لهما يوم من الشر أنكد

شريفين جاز النجم قدرهما السنى حقيقين من صنفى قلوب وألسن
بحب صريح وامتداح مدون شهيدين متبوعين من كل مؤمن
بكل صلاة برة تعهد

فياالوجيع والمقشب هده ويا لصريع والمشطب قده
كلا السيدين استأسد الخطب عنده فهذا أذابت سورة السم كبده

وهذا أذابتة قسى تكبد

أبيت الهدى تنحنى عليه الملاحم وتندق فيه ذابل وصوارم
ألا يتسهى غاو وينهاه عالم فما عذر أهل الأرض والقسط قائم

وكلهم فى موقف الفصل يشهد

فيا حاضريه يا دعاة دعيكم غدرتم حسينا غدركم بعليكم
ستثقفكم قربا ظبا ثقفكم أيفعل هذا بابن بنت نبيكم

وليس لكم فى النصر يوم لا غد

كحلت قريح الجفن سهدا وعبرة وأنزعت ركب الصدر وجدا وزفرة
وأوسعت حسن البصر صدا وهجرة أبى الله إلا أن فى النفس حسرة

بغصتها أمسى وأضحى وأرقد

أنظم من دمعى نفيس جواهر أقلدها جيد العلى والمفاخر
وأصلت من فكى أمضى بواتر إلى أن يقيد الله من كل واطر

على أن كفا مقنعا ليس يوجد

فلو ملئ المعمور من كل سيد وأنفدهم فى الثأر حد المهند
لما نال شمع النعل من بسط أحمد وأى دم يوفى دم ابن محمد

حسين وأمسى وهو سبط موحد

أهله تلك الهالة النبوية وأزهار تلك الدوحة العلوية
تهيش لها الأرواح بالأريحية فيا خاتم الأسباط إن تحيتي

تؤمك من صقع بعيد وتقصد

عساها وراجي الله لم يخش ضيعة تفرج لي كربا وتؤمن روعة
سرت كالضحى ضوءا وكالمسك ضوعة مثقلة بالدمع شوقا ولوعة

على زفرة من حرها أتأود

فيا نعمة للآملين جسيمة ويا روضة للرائضين وديمة
ويا حجة للزاهدين قويمه ويا أسوة للمسلمين كريمه

يلين عليها الحادث المتشدد

فلا علقم إلا برزئك قد حلا ولا مظلم إلا ذكرناك فأنجلي
وكل أخى شجو بشجوك قد سلا فمن ينكر البلوى وأنت بكر بلا

لذى البث والشكوى إمام مقلد

لك الرتبة العليا أناف محلها وأفضت إلى دار المقامة سبلها
وما أنصفت لو داست الشهب نعلها فإن تجهل الدنيا عليك وأهلها

فيأنك فى أهل السماء ممجد

لك البيت مرفوع السناء جليله فما تقتفى الأبرار إلا دليله
ولا فاز إلا السالكون سبيله أبوك شفيع الناس وهو الذى له

مقام كريم فى البرية يحمد

هناك يلوذ المسلمون بعطفه وأمته تحظى بمعتاد عطفه
ومن يشك من سقم الكبائر يشفه ومشرة الحوض الروى وبكفه
تزداد رجال عنه وتصرد

تسقاء أبرار حلاهم إصابة لكل من النور البهى عصاة
وتحرمة الفجار فهى مصابة ومن يزود الله عنه عصاة
بقتلك فى طغيانها تتحمد

لقد عرف الدين العراق وأهله نجيعة أضحى كلهم يستحيله
لك الحرب من هذا ومن ذاك خذله وذنبهم فى قتلك الذنب كله
فما لهم إلا الجحيم تغمد

فلا عمر أرضا أتت كل منكر وقال بها داء لذي البر ينبرى
وما ذاك إلا أن غرتك بعسكر وهل كنت إلى مثل عمك جعفر
قتيلا لكفار بذى العرش الحدوا

وإلا كأسلاف كرام أعزة رجوا فوزهم من فتنة مستفزة
ونالوا بالاستشهاد أشرف عزة وإلا كليث الله جدك حمزة
وحربة وحشى إليه تسدد

ومثل الألى ثابوا إلى الله وحده وباعوا نفوسا واشتروا منه خلده
فهازوا وحازوا أكبر الملك عنده ومثل أبى حفص وعثمان بعده
ومثل على وهو للناس سيد

لبست حلاهم من علا ومجادة وقاستهم فى نيل كل سعادة
وفزت بحسنى مثلهم وزيادة وما منهم إلا غريق شهادة
حياتهم موصولة حين تنفد

معناشرك الأشراف لله درهم وأعمام صدق عم باسمك فخرهم
وأنجم فضل باهر أنت بدرهم دماؤهم مسك زكى وأجرهم
على الله لا يحصى ولا يتحدد

فيا أهل بيت بالنبوة زاهر ويا أبحر الجدوى وشهب المفاخر
ومن مدحهم للحشر أسنى ذخائر أقول بيث مستكن وظاهر
مضاضته عن حبكم تتولد

ثنائى منشور على القرب والنوى وصدرى على محض الصفاء قد انطوى
وسرى وجهرى فى الخلوص لكم سوا وما سرنى أنى خلى من الهوى
هوى هو فى حاميههم يتلى^(١) وينشد

ولو أن نظمى كالبهار الزواجر لقصر عن بعض الذى فى ضمائر
ولكننى أرجو ثواب المبادر سريرة حى يوم تبلى سرائر
يقوم بها عنى الصفيح المنضد

فمن لى بدار أمن الله سكنها وبالكعبة العليا أقبل ركنها
وطيبة أثوى قبل يومى عدنها سلام على تلك المواطن إنها
لآل رسول الله طهر ومسجد

(١) يعنى قوله تعالى: ﴿...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾ (٢٤) ﴿...حَمْدٌ...﴾

أيت بها صبا وأصبح مغرما فروحي فيها حاضر قد تنعما
وجسمى عنها غائب قد تألما فيا رب وفدني إليها مسلما
ويا طيب مسرى من إليها يوفد

أثرب هل أمسى وضوءك حلتي ورومة شربي والنخيل مظلتني
وهل قبلة في مسك تربتك التي أفيض بها دمعى وأنقع غلتي
وأنهم في ربع الرسول وأنجد

لتجلى بإصباح القبول غياهي وتهدي إلى قصد السبيل مذاهي
وأقضى من التقوى أجل مآرب وأدعو إلى الرحمن دعوة تائب
إلى عفوه من طيبة يتزود

فيا رب يسر أسعد اليسر واقضه لعلى وحبلى مبرم بعد نقضه
أزور نبيا همت في لثم أرضه وأسمو إلى البيت العتيق بفرضه
فكل به من ذنبه يتجدد

وبعد التشفى من مقام ومشعر أثنى مزار المصطفى فهو مفخرى
لأثنى عمرى فى الجوار المطهر ولست على قبر الرسول بموثر
ليحشر من ذاك البقيع محمد

عسى منيتى تدنى قبيل منيتى فأرفض من دنيائى كل دنية
بمشوى تسنى فيه كل سنية فيا رب حقق ما طلبت فنيته
هنالك والأرواح جند مجند

تخميس الخصالية الثانية، ذات القطوف الدانية

لم يسبنى حب الحسان الخرد لكن بليت بشوقي المتجدد
لأعز لحد وسط أشرف مسجد هل يجمعن صباح يوم أو غد
بينى وبين القبر قبر محمد

يا خالقى أنت المقييل لعشرتى وعلمت سرى فى الخلوص وجهرتى
فامنن بحججتى ثم عجل زورتى حتى أروى ناظرى من عبرتى
ويقر عينى طيب ذاك المشهد

وتفور نفسى بالمنى من قربه وتنال عينى إثمدا من تربه
والم بالهادى وخيرى صحبه وأقبل الأرض التى حملت به
بدرا يجلى كل جنح أسود

وأعيد نحو الجسم شرخ شبابه وأجىء بيت سعادتى من بابه
وأورد غيث الغيث عند مصابه وأعظم البلد الذى أرسى به
طود النبوة ثابتا بالأسعد

فمتى يسوق بى المزمزم ركبته فأحل أرضا لثمها بى أشبه
سجد النبى بها وناجى ربه أشكو إلى جبل تضمن حبه
حبا أضاق تصبرى وتجلدى

ومتى أحل من الحجاز معانه فأرى بآثار الحبيب عيانه
ويمثل المسكون لى مكانه وأبلغ القلب المروع أمـانـه
وأقول للنفس التى ظمئت ردى

ومتى أحت العود جما عدوه يحكى ظليما فى ظلام خطوه

فأفوز بالعيش المهنا صفوه وأهش للأفق المبارك جوه

متجددا من نوره المتجدد

وأزور للشهداء أفضل مشهد وأتم عمري فى جوار الأسعد

وأشم ترب الند من ترب ندى وأسح فى أبيات آل محمد

دمعا كمثل اللؤلؤ المتبدد

للأدمى بمقتضى معقوله فئة يؤمل جاهها لخموله

وبحبها يحظى بأشرف سوله والله يعلم أن آل رسوله

آل تمكن حبهم فى محتدى

آل النبوة حقهم عنهم زوى وبساطهم فوق البسيطة قد طوى

عطشوا فكان العضب عذبهم الروى فسبكربتى منهم أنوح وأنطوى

وبحسرتى فيهم أروح وأغتدى

يا موضعا عنسا تخب برحلهما ينوى ييشرب أن يقل بظلهما

فى نضر غابتها وسامق نخلها قف بالمنازل سائلا عن أهلها

أين النبوة والنبي المهتدى

أين المحافل راجيات طوله أين الجحافل سامعات قوله

أين القبائل خائفات صوله أين الصحابة والصواحب حوله

إذ باعيوه باللسان وباليـد

أين الألى باتوا ركوعا سجدا ولدى الحروب سطوا بأصناف للعدا

فى الله واختاروا على العيش الردى أين الذين سبقهم عز الهدى

وعلت على الأديان ملة أحمد

أين الألى نصرّوا الرسول بطيبة وحموا حماه بحضرة وبغية

ناهيك من كرش هناك وعيبه أين الذين لعتبة ولشيبة

والى الوليد سمووا بكل مهند

أين الذين غداة بدر صرعوا عمرا ومن جمعت لؤى أجمع

وحموا ذمار الدين وهو مضيع أين الذين بيوم أحد صرعوا

ما بين مثنى فى الإله وموحد

أين الألى حضروا الوغى بعتادها فالسمر آجام على آسادهـا

وتريكها حـب لـسيل جـيادها أين الذين بمؤتة وجـلادها

ماتوا كراما كالليوث الحرد

أين الكرام المفردون بفخرهم السابقون الخلق آخر دهرهم

بكريم هجرتهم وعالى نصرهم أين الثمانية الذين بصبرهم

ثابت بأوطاس بصائر من هدى

صحب غدا المختار سيد جفلهم لما اقتفوه بقولهم وبفعلهم

عقم النساء فما يلدن بمثلهم يا مسجد التقوى غدوت بفضلهم

ومكانهم فى الدين أفضل مسجد

عمروك مكنوفا بأوقى عصمة والوحي يسمعهم مثاني حكمة
ثم ارتقوا عدنا لأسبغ نعمة وبقيت بعدهم مثابة رحمة

في غربة المستوحش المتفرد

أصبحت للعلياء جامع شملها بثلاث أقمار شرفت بفضلها
فاخلد ملاذا لللقى ولأهلها تبكى على خير البريئة كلها

بدموع كل مصدق وموحد

فكم انتحيت حظيهم ورضيهم حتى حجبت سريهم وسنيهم
وطويت ميتهم كنشرك حيهم فقد السماء كما فقدت نديهم

ونجيهم في مهبط أو مصعد

وبكى الأنام على شفيع منقذ كان الغمام على نداه يحتذى
والسمر لولا بأسه لم تنفذ وتفرد الرحمن بالغيب الذي

كان الرسول بوحيه يروى الصدى

قبض النبي فرسمنا لعفائه أمسى به الإسلام في إشفائه
لكن تدارك ربنا بشفائه ولقد أقام الدين من خلفائه

أصهاره كل بأحمد يقتدى

سير النبي بعدلهم لا تبرح سنن تقام وأمة تتنصح
والأمر شورى والأقاصى تفتح وأتتك بعدهم الملوك فمصلح

يضع الأمانة عند آخر مفسد

الحزن عندى مكسبا ووراثه والبعد أمعن فى الفؤاد عيائه
فمتى أرجى بالوصول إغائه يا بيت عائشة المجن ثلاثة

نظموا به نظم الطراز الأوحـد

أرواحنا شفقاً عليك أشحه وجفونا بدموعها لك سمحه
فيك العلى طرا لتهنك مدحه مثوى النـبى وصاحبـيه وفسحه

عيسى بن مريم حازها بالموعـد

فقت النجوم سعادة وجلالة وإنافسة وإنارة وإنالة
فعلى بيوت الله حزت إيالة بوركـت من بيت يضم رسالـة

ونبوة وخلافة فى ملحد

بك أملت نفسى جلاء كروبيها ما غير سكنك عد من محبوبها
وبهم وسيلتها إلى مرغوبها منى إليك تحية يهفو بها

قلب بذكرهم وحبهم ندى

ما للكئيب فتجلى غماؤه ولمن عصى فيغاث منه ذماؤه
إلا نبى قدست أسماؤه صلى الإله وأرضه وسماؤه

والعالمون على النبى المقتدى

بالوحى فى صـحب يصد صـداهم المستـقل بأن يـرد رداهم
المستدل إذا يبيد عـداهم بالأنبياء المهتدى بهـداهم

رشدا تبين فى الكتاب المرشد

تخميس الخصالية الثالثة، وهى بأشجانها

للعباد كارثة، وبتحنانها للأكباد فارثة

يا صادعا بشكاة تصنع الحجرا من حادثات أعادت صبره صبرا

عمت فلا وطننا أبقت ولا طرا هون عليك من الأرزاء ما حضرا

بعد النبی ولا تعدل به خطرا

هو الرسول الذى جلت مفاخره . زار السماء وجبريل موازره

يسر به كل مأمول تبادره واذكروه فى كل مكروه تحاذره

تلف المصاب به قد هون الحذرا

لى فى الدجى أنة تبكى سواجعه وهل يبيت قرير الطرف هاجعه

من ذاق وجيع الثكل فاجعه أبعد أحمد يستقرى مضاجعه

يودع البيت والأركان والحجرا

فعلم الحج حتى بان مجمله ويلغ الدين حتى تم مكمله

وآب تدنيه للفردوس أرحله مستقبلا طينه . والله ينقله

إلى رضاه فلما يعد أن صدرا

لاحت بأحمد من شرع مناهجه ولم يدع لامرئ شكا يخالجه

بسورة النصر قد تمت مباهجه ثم استعز به شكو يعالجه

يغشى بسورته الآيات والحجرا

فكم عقول من الأبرار طائشة بفرقة لسهام الحزن رائشة

شكا الرسول فما نفس بعائشة حتى انتهى دوره فى بيت عائشة

فى يومها يتبع الأنفاس والأثرا

رجت شفاء تغيث الدين كرتة ما راعها إذ أتت للحق سكرته

إلا اختيار رفيق فيه أثرته جمال فى حجرها طلق أسرته

غض البشاشة إلا اللحم والنضرا .

فاق النبيئين فى سامى سماتهم ويقتفيهم حب فى صلاتهم

قد أشبه القوم حتى فى وفاتهم فأذهل الناس طرا عن حياتهم

موت الرسول ومنهم من نفى الخبرا

ما فى الصدور سوى الأشجان والحرق وكل طرف رهين السهد والأرق

وكل جمع من التفريق فى فرق فياله من نظام بات فى قلق

لولا أبو بكر الصديق لانتثرا .

خليفة المصطفى طاع الجميع له . تقديمه لصلاة الفرض فضله

رأوه نصا فما راموا تأوله إن كنت معتبرا فانظر تقلله

والأرض تبر ودين الله قد ظهرا

بالفتح نال من الدنيا تمكته فحين دانت له أبدى تدينه

وكم تسنت فأولاهها تسنه لم يرض منها سوى قبر تضمنه

كان الفراش له فى نومه مدرا

يارب أسرف لكن عدت بالكرم إن طال خوفى فجاء المصطفى حرمى

لثم الضريح ولو فى الوهم معتصمى يا قبر أحمد هل عن زورة أمم

قبل الحمام تسر السمع ولا بصرا

متى تلوح لعين فاض صيبتها عروس هدى قلوب الخلق تخطبها

تجلى بمكة والأستار تحجبها وهل إلى طيبة ممشى يقربها

يا طيبة إن تأتى يومه سفرا

متى أرى منهج الرضوان منتهجا لبلدة يرتجى همى بها فرجا

من زارها فإلى الأفلاك قد عرجا فتشوق النفس فى أرجائها أرجا

يشفى السقام وينفى البؤس والضررا

وأشهد الله أنى قاطع سببى من ظالمين عتوا فى الريب والريب

عموا بنى المصطفى بالحرب والحرب واستجير ببطن الأرض من كرب

فى ظهرها لم تدع شمسا ولا قمرا

وبع المشوق فكم يفنى بحسرتة لمحضر زانه الهادى بحضرتة

فى أهل هجرتة طر ونصرتة استحمل الله من أسرار قدرته

عزما يخوض إليه البدو والحضرا

ووثبة لنواصى النجم قابضة وتوبة لكبير الإثم راحضة

وهمة لدنى - الهم رافضة وقوة بضعيف الهم ناهضة

وحجة تنظم الأصال والبكرا

أرجو الوفود وفودى فى إنارته وليس بعد عشى من غرارته
كلا فكم عاد ذا وفى نضارته يارب أحمد كن لى فى زيارته

أقوى معين إلى أن أقضى الوطرا

ولا وسائل تدنى كل شاردة من الأمانى وتسنى كل فائدة
سوى صلاة على المختار خالدة صلى الإله صلاة غير نافدة

تكائر الريح والأشجار والمطرا

على السراج المجلى الظلم والظلما على الشفيع الرفيع المنقذ الألما
على الأمين المكين المجتبى قدما على البشير النذير المصطفى كرما

من كل بطن وصلب طهرا

على المشفع فى أصحاب قبلته على المبيد جيوشا قبل حملته
على الحميد مقاما يوم وصلته على ابن آمنة الماحى بملته

من كان بالله والإسلام قد كفرا

وصحبه النخب المحيين كل سنن عتيقهم وأبى حفص وخير سكن
لخير بتين والمكنى باسم حسن^(١) وأهله الطيبين الأكرمين ومن

آوى وساهم فى البلوى ومن نصرا

(١) يعنى بعتيق: أبا بكر الصديق، وبأبى حفص: عمر بن الخطاب، وبخير سكن لخير بتين:
عثمان بن عفان، والمكنى باسم حسن، على بن أبى طالب.

وخير عمين عما أنعما ومنن وخير سبطين هاجا لوعة وشجن^(١)

وسائر الصحب من عدنان ثم يمن وأمهات جميع المؤمنين ومن

هدى هداهم ومن صلى ومن نحرا

صلى عليه وأسماء وأعظمه رب حباه من التشريف أعظمه

وخير وسطى لعقد الرسل نظمه ونضر الله حسانا وأعظمه

فقد بكى ورثى فى الله وانتصرا

بالمدح سر وبالتأبين قد حزنا يذكر الناس بالعصر الذى حسنا

كأنما رد من وحى لهم زمنا أبا الوليد لقد هيجت لى شجنا

وقد بعثت الجوى والحزن والذكرا

حزت الفصاحة للرضوان خاطبة بمحفل الفخر قامت عنك خاطبة

بليغة لم تكن بالليل خاطبة فأنت شاعر آل الله قاطبة

نافحت عنهم بروح القدس مقتدرا

أجاد فى مدح للوحى باهرة جادت بأقطاره أخلاف قاطرة

بدر غيث كدر عنه هادرة يا رحمة الله أُمى غير صاغرة

ضريحة وامسحى عن وجهه القترا

لشعره تلبس الشعرى تخاملها وحق أن تظهر الدنيا تخايلها

به وإن تصل العليا تطاولها فإنه سابق والسابقات لها

فى الحق أن تمسح الأعطاف والغنرا

(١) خير عمين: يعنى عمى الرسول ﷺ، وهما حمزة والعباس، وخير سبطين: الحسن

مقلد الفخر أسلاكاً منظمة ولا بس المجد أبرادا منمنمة
وحائز الفضل أنواعاً متممة أبقى له منبر الإنشاد مكرمة

عمت فلا المدر استثنت ولا الوبرا

قد أخجل الزهر زهر من كئامه وروع الأسد سجع من حمائمه
ما في فحول قريش من مقاومه ولم يسل لسانا في مقاومه
وإنما سل سيفاً صارماً ذكراً

نجر سما آل نجار بمنصبه ومذهب ما لوشى حسن مذهبه
إن قال فالكفر مقضوب بمقضبه يا مقولاً نصر الله الرسول به
لا زالت في جنة الفردوس مشتهراً

تخميس الخصال: الرابعة الرافعة، الرائقة الرائعة،

وهي في سماء السنا طالعة، ولأكباد الحساد خالعة

يا فوز ركب إلى المختار قصاد وأسهم الشوق فيهم ذات إقصاء
تطير أرواحهم إن كرر الحادى قلبى إلى طيبة ذو غلة صاد
إلى البشير النذير الخاتم الهادى

لله واصل روح قبل رحلته لم يشك إلا لمولاه بعلته
سحب البكار لا تروى فرط غلته إلى أبى القاسم الماحى بملته
كفران كل كفور جهله بادى

بحر الجوى زاهر من لى بشاطئه والصبر وعرفما قلب بواطئه

قد همت فى الشافعى المنجى لحاطئه حتى اعفر خدى فى مواطئه

غورا بغور وأنجادا بأنجاد

فأرشف الشهد من بقيا مناهله وأقطف الزهر من ذكرى شمائله

وألثم المسك من ممشى رواحله وأرسل الدمع سحافى منازلله

مستفرغا جهد أفلاذ وأكباد

إذا لمحت لذاك البدر هالتفه فالشوق يذبل من جسمى ذبالتفه

والصدق يسأل من روحى إسالتفه فى حيث أودع جبريل رسالتفه

وحيا إليه بتوفيق وإرشاد

أجرى العقيق بدمع مثل ناصعه وأسأل النخل تظليلا يئانه

والمح النور من أبهى مطالعه وأشرب الماء من أروى منابعه

فطيبة قد سرى فى ذلك الوادى

رحماك فى مقلة عبرى مؤرقة واعطف على مجهة ولهى مشوقة

وانظر إلى كبى قرحى محرقة يا حب أحمد إنى منك فى ثقة

وأنت أحضر أعتادى وأزوادى

أنت المبلغ لا أخشى حجابته إلى الرسول الذى أرجو إجابته

فيا هواه ولا أنسى صحابته سرى وجاور بى مآبته

حتى أضمن أكفانى وأعوادى

إلى رضى الله كن لى أوثق السبب فأنت أعظم ذخىر عند منقلب
بك ارتجيت بلوغ السؤل والأرب وما تمكنت من قلبى ليفدع بى

ولا لتقطعنى عن ذلك النادى

لا أهرب الهم يغزونى بموكبه ولا أحاذر دهرافى تقلبه
وقد بدا لى يجلو جنح غيهبه نور من الله لو أنى سرىت به

لما افتقرت إلى هاد ولا حاد

بالهاشمى حبانى العز رتبته أعلى مرادى لو قبلت تربته
ورزت فى الحين أهليه وصحبته لم يفرغ الله فى قلب محبته

إلا لأحمل فوق الرأس والهاد

لم يبق-والله-لى فى العىش من أرب سوى البكور أشد الكور والقتب
ميمما خير لحد ضم خير نبى متى أقول لوفد الله من كشب

يا رائحىن انظرونى إننى غاد

أسمو إلى المسجد الأسمى فواطربى مقابلا روضة أبهى من الشهب
مقبلا تربة أشهى من الشنب وقد برأت إلى الرحمن من نشب

وقد تخليت على أهلى وأولادى

وقد كسانى التقى مما انتقى خلعا يومى صيام ولىلى سجدة ودعا
أعرضت عن عرض الدنيا وكم خدعا مستبدلا بجوار الله منقطعا

إلى الرسول انقطاع العاكف البادى

أما ذوو النسك فالرحمن يرحمهم وفي الصلاة على الهادي تنعمهم
بها يوقئهم المولى ويعصمهم صلى الإله وأهل الأرض يقدمهم

أهل السموات من مثني وآحاد

على سليل من استهدى بكوكبه على الإمام برسل من تقر به
على الشفيع الذي يرضى بمطلبه على الذي أنقذ الله العباد به
من ظلمة الكفر رشدا بعد إفناد

على المؤيد بالآيات والصور على مجير ذوى الأحجال والغرر
على مبيد العدا بالنصر والظفر على ابن آمنة المختار من نفر
ما فوق مجدهم مرقى لمزاد

على الذي عظمت في الرسل حظوته على الذي عمت الآفاق دعوته
على الذي أفنت الكفار سطوته على النبي الذي تمت نوبته
وآدم طينة قدت لأجساد

على مقيم فروض للتقى وسنن على الذي سن للإيمان خير سنن
على الذي ملأ الدنيا هدى وهدن على الرسول ابن عبد الله أكرم من
أورى بنور أضواء في الأرض وقاد

دامت عليه صلاة الله ماطرة غيث الرضى أبدا لاقلت خاطرة
للمسك في طيب رياه مشاطرة وبعده صلوات الله عاطرة

على الصحابة أعدادا بأعداد

على الذين بصفو الود أتخفهم من صحبه السادة الحامين موقفهم
يوم الهياج بنصر قد تكنفهم وأهله الطيبين الأكرمين فهم
في الأرض أظهر غياب وشهاد

قبل الممات أرجى لثم تربتهم وفي المآب عسى لمح لرتبتهم
قد تؤنس العبد سادات بصحبته يارب واحفظ مقامى فى محبتهم
فإنها - وإليك المنتهى - زادى

كمل تخميس الخصاليات الأربع، المعارضة للحسانيات فهي مساقها الأطيع،
والحمد لله كثيرا أثيرا، والشكر له منظما ونثيرا، لحميد كرمه مستثيا، ولمزيد نعمه
مستشيرا.

انتهى التأليف بحروفه

أهم مراجع التحقيق

- البيان المغرب لابن عذارى، دار الثقافة، بيروت ١٩٩٨م.
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال، طبعة الخانجي، القاهرة ١٩٩٤م.
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي، بيروت.
- معجم أصحاب الصدفى لابن الأبار، مصورة الثقافة الدينية ٢٠٠٠م، عن طبعة أوروبا.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري، دار صادر بيروت ١٩٦٨م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتبكتي، الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ما لم يكمل من مؤلفات عياض	٥
ثناء الناس على مؤلفات عياض	٥
رأى ابن تيمية فى شفا عياض ورد ابن عرفة عليه	٧
نسبة القول بالجهة إلى ابن تيمية	٧
من حياة ابن تيمية	٨
رحلة أبى عبد الله المقرئ (نظم اللآلى)	٨
التعريف بابنى الإمام	٩
ترجمة أبى موسى المشدالى	٢٠
ترجمة أبى إسحاق بن حكم السلوى	٢٢
ترجمة أبى محمد المجاصى	٢٩
ترجمة أبى على حسن بن يوسف الحسينى السبتي	٣٢
ترجمة أبى عبد الله محمد بن هدية القرشى	٣٤
ترجمة أبى عبد الله محمد بن عبد النور	٣٦
ترجمة أبى عمران المصمودى الشهير بالبخارى	٣٦
ترجمة أبى عبد الله محمد بن يحيى بن النجار	٣٧
ترجمة أبى الحسن بن سبع المكناسى	٣٩
ترجمة أبى عبد الله القرشى الزيدنى التونسى	٤٠
ترجمة أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى السبتي	٤٠
ترجمة أبى عبد الله بن سليمان السطى	٤١

٤٢	ترجمة أبى عثمان سعيد بن إبراهيم بن على الخياط
٤٢	ترجمة أبى عبد الله محمد بن على بن الجمال
٤٢	ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق
٤٣	ترجمة أبى زيد عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجى
٤٣	ترجمة أبى عبد الله محمد بن محمد القرمونى
٤٤	ترجمة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلى
٤٩	ترجمة أبى عبد الله محمد بن شاطر الجمحى المراكشى
٥١	شيوخ أبى عبد الله المقرئ ببجاية
٥٢	شيوخ المقرئ بتونس
٥٥	شيوخ المقرئ بالمغرب
٥٥	شيوخ المقرئ بمصر
٥٥	شيوخ المقرئ بمكة
٥٦	شيوخ المقرئ بدمشق
٥٦	شيوخ المقرئ ببيت المقدس
٥٧	ابن خلدون بمصر
٥٧	تعريف ابن خلدون بشيخه أبى عبد الله المقرئ
٥٧	وصف القاهرة

الروضة الثامنة فى ثناء الناس على عياض

٥٩	ثناء أبى الوليد بن رشد
٦٠	ثناء أبى بكر بن العربى على عياض وإعجابه بكتابه (الشفاء)

الموضوع	الصفحة
مدح أبى عمرو الملقى لعياض	٦٠
مدح أبى عبد الله المكلاى لأزهار الرياض (هذا الكتاب)	٦٠
مدح أبى محمد محارب بن محمد الوادى آشى	٦١
رؤى عن أبى الفضل عياض	٦٢
من فضائل شفا عياض	٦٥
إقامة عياض الحد على الفتح بن خاقان	٦٨
نثر الفتح بن خاقان وبراعته	٧٦
التعريف بالمنصور بن أبى عامر	٧٩
ترجمة أبى مروان بن صمادح	١٠٥
ترجمة رفيع الدولة بن صمادح	١٠٨
ترجمة أبى عامر بن عقال	١١٠
ترجمة أبى القاسم المنيشى	١١٣
ترجمة أبى الحسن البرقى	١١٥
ترجمة أبى الحسن على بن جودى	١١٦
ترجمة ذى الوزارتين أبى عبد الله بن أبى الخصال	١١٩
تخميس ابن حبيش لقصيدة ابن أبى الخصال (معراج المناقب)	١٣٣
تخميس ابن حبيش للمراثى الحسانية (الحدائق النيسانية)	
تخميس الحسانية الأولى	١٩٦
تخميس الحسانية الثانية	٢٠٥
تخميس الحسانية الثالثة	٢٠٨

الموضوع	الصفحة
تخميس الحسانية الرابعة	٢٠٩
تخميس القصائد الخصالية المعارض للحسانيات	
تخميس الخصالية الأولى	٢١١١
تخميس الخصالية الثانية	٢٢٤٠
تخميس الخصالية الثالثة	٢٣٢
تخميس الخصالية الرابعة	٢٣٧

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

المكتبة المالكية

أزهار الرياض في أخبار عيسى

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ الباساني

(ت ٨١٠ هـ)

طبعة مزينة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة الشقافة الدينية

الناشر

مكتبة الشقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١

فاكس: ٢٥٩٢٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر

E-mail: alsakafa_alDinaya@hotmail.com

Bibliotheca Alexandrina



0963359